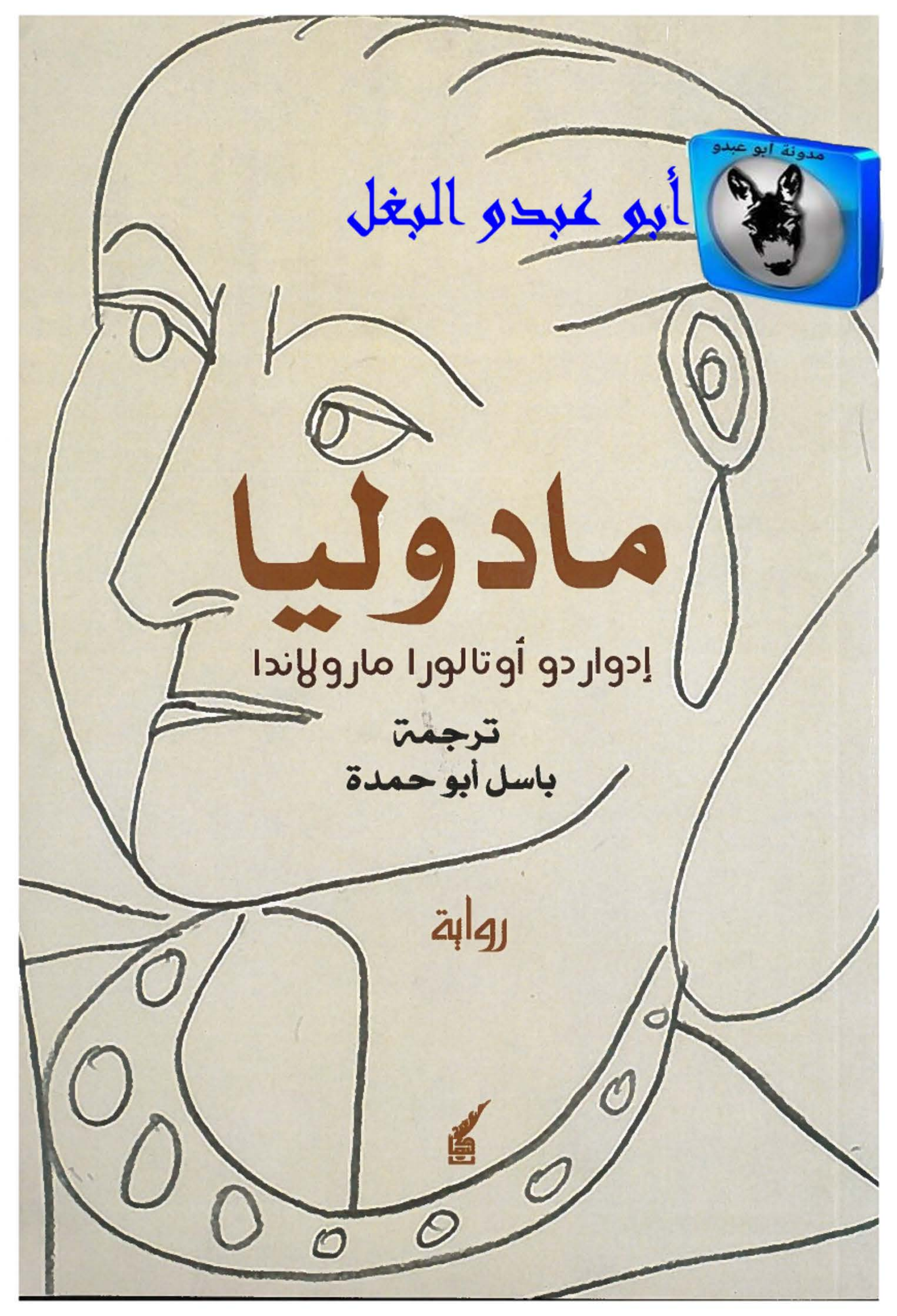


مدونة أبو عبدو
أبو عبدو البغل
مادوليا
إدواردو أوتالورا مارولاندا
ترجمة
باسل أبو حمدة
رواية

# مادوليا

**مادوليا** «رواية»

تأليف: إدواردو أوتالورا مارولوندا

ترجمة: باسل أبو حمدة

عدد الصفحات: (112)

القياس: (14.5 ✦ 22)

**الناشر: دار كنعان**
للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية



دمشق - ص.ب 443 تلفاكس: 2134433 (11 - 963 +)

E-mail: said.b@scs-net.org

الطبعــة الأولى: 2016 / عــدد النــسخ 1000

إخراج: لبنى حمد

الإشراف العام: سعيد البرغوثي

إدواردو أوتالورا مارولوندا

# مادوليا

رواية

ترجمة

**باسل أبو حمدة**



إلى كارولينا لوبيز خيمنيز، لأجل الحب

النـوادر ذات الاسـتخدام الـدارج لـن تفـيض في هذا الكراس، ذلك أنه عند كتابتـه، لم أفترض رسم قصة إنسان، وإنما قصة روحه.

ليوبولدو ماريشال، آدم بونوسايريس

في عـام 1920، ولـد هـانس ريـتر. لم يبـد طفلاً وإنما أقرب إلى الهلام أو الطحالب.

روبيرتو بولانيو، «2666»، جزء ارشيمبولدي



# 1

عند الساعة الحادية عشرة وثلاث وعشرين دقيقة صباحاً، أطلقت الصرخة الأولى، دوّت كأنة جرو يدوسون ذيله، بعدها جاءت زفرات مديدة بدت فيها روحها كأنها تخرج من جسدها. أيقنتُ عندما حملتُها إلى صدر أمها حتى تشرب اللِّبأ، أن هذه الطفلة كانت قد سرقت ما تبقى لأريانا من حياة، لكني وضعت شفتيها البنفسجتين الصغيرتين جداً، وبالطريقة عينها، على الصدر المفرغ من الهواء، وتركتها ترضع وأنا على قناعة، بأن طفلة حديثة الولادة ما كان لها أن تفرِّق بين حليب الأحياء وبين حليب الأموات.

لم أتفاجأ أنها كانت قد توفيت في اللحظة التي ألزمت نفسها فيها بالدفعة الأخيرة، فالسعال الدامي الذي لازمها خلال السنتين الأخيرتين، كان قد أنبأ الجميع بأن السل كان في طريقه إلى القضاء عليها لا محال.

لم تستسلم للموت أثناء الحمل، لأنها وكما قالت لي قبل ليلتين من وفاتها: يمكن أن أكون أي شيء، لكني لست قاتلة إنسان، وخاصة إنسان حملته في أحشائي. وربما لهذا السبب بالذات، كانت تعامل زبائنها جيداً، ملقية التحية عليهم بحنان مصحوب بالقبل على الوجنتين، فاردة لهم شعرها المشعث المتسخ بسخام أرصفة المرفأ،

مبتسمة حين يتفحصونها بأيديهم المتصلبة والملطخة بالشحوم، متأوهة بحنان عند الإحساس بنوبات عدم اتساق النبض التي كانت تنبئ برجفة الجماع الأخيرة، ومودعة إياهم بعناقات دافئة وواعدة، على الرغم من أنهم كانوا يعلقونها من رأسها لجلدها بعصي مغمّسة بالملح والليمون.

هي كانت ما أسميه أنا بائعة هوى بدم نقي، من أولئك اللواتي يجعلهن الوقت نسياً منسياً، من أولئك اللواتي يتعلمن بسرعة، أن عليهن احترام البيت الذي يأويهن، اليد التي تطعمهن، والزبائن الذين يهبون لحيواتهن معنى، من أولئك اللواتي ما كان يتعين تعليمهن الاغتسال قبل وبعد تقديم خدمة، من أولئك اللواتي لم يرُق لهن الشرب قط، لكنهن يعرفن كيف يسكرن الزبائن حتى يتركوا أوراقهم النقدية مجعدة في جيبي.

هي زينة منزلي هذا، الذي كلفني ليالي طويلة قضيتها في رصيف المرفأ، منتظرة بحّارة تفوح منهم روائح كريهة جراء الاستفراغ الذي يصاحب سكرهم الدائم حتى يناموا بعد أن يستخدموني لأسرق منهم نقودهم المعدنية وأهرب من جديد إلى رصيف المرفأ، لأصلي من أجل ألا يتعرفوا علي عندما أعود وألتقيهم مرة أخرى.

مرتان اثنتان فقط تذكّروني، في المرة الأولى حملت معي ندبة طويلة في جنبي، أصبحتْ متوارية الآن بين طيات بشرتي المترهلة، المرة الثانية لم تترك أثراً؛ لأن خطاف الصيد الذي أراد البحار أن يعلّم وجهي به، انتهى به الأمر مغروساً في حنجرته. كانت حالة الوفاة الأولى التي أواجهها، أما الثانية فكانت حالة وفاة المالكة القديمة لهذا البيت، وهي امرأة ممتلئة الجسم صغيرة الحجم، دأبتْ على القول إنها بالكاد تعبر عقدها الرابع، لكن في كل طية من طيات كرشها الناتئ، ثمة خليط

عنيف من الأخاديد والندوب التي مر عليها أكثر من نصف قرن من الزمن.

أعدك بأن أدفع لك كامل الأجرة، قلت لها. أنا لا أثق ببائعات الهوى، أجابت. لكنك كنت واحدة منهن. لهذا السبب بالذات أعلم ما نحن عليه، أعلم أن الزبون يضيع إذا بقي نائماً. لو كنتُ أنا الزبونة، فإن الشيء الوحيد الذي يجب أن أشعر بالقلق حياله هو دفع المال. استغرقتُ في التفكير وسألتُ: من يضمن لي أنه سيكون لديك ما تدفعين به؟ أنا أضمن ذلك. هذا غير مجد. في هذه الحالة أقترح أنه إذا لم يكن لدي مال لأدفع الإيجار في الشهر المقبل، فسوف أترك لك جميع بائعات الهوى اللواتي جندتهن وأبقى أعمل مجاناً.

بكل تأكيد، وافقت. وبعد مرور أسبوعين ظهر كاليكستو، وجدته خارج قفص تربية ديكة المصارعة وفي رأسه جرح مغطى بدم متخثر مخلوط ببقايا الطوب وبراز الدجاج: كان له وجه كلب جريح حرّك مشاعري وقررت الاقتراب منه. خاطبني قائلاً: سيدتي، جزاك الله خيراً. أجبت وأنا أرفعه: سوف يتعين عليكَ أنت أن تجزيني. جلبته إلى البيت ووضعته في قبو الفناء الذي لم يَضره أن ينام فيه على شوالات الليف المغبَّرة ولا في أن يتدثر بالشراشف القذرة التي كانت عاهراتي الأوائل قد تبرعن بها للدار. عندما مررت لحمل الطعام له وتنظيف جروحه، وجدته نائماً محركاً شفتيه الغليظتين والمتيبستين كما لو أنه كان يمص شيئاً ما. فكرت محدثة نفسي: «تفتقد أمك. لعلك لم تصل إلى المكان المناسب، لكنك ستحظى فيه بخدمة حسنة». رعيته طوال اليومين اللذين نام خلالهما، ثم أكل كما لو أنه لم يفعل ذلك من قبل معبراً عن امتنانه الشديد، إلى درجة أني قلت له: إنه في هذا البيت يروق

لنا الرجال الصامتون؛ لأننا نقبض من الذين يتكلمون منهم، ومنذ تلك اللحظة لم يتكلم إلا عندما كان لابد من ذلك.

اليوم الذي تمكن فيه من النهوض من السرير ووجدته يدخل إلى المطبخ، دعوته للجلوس معي ومشاركتي الطاولة التي كنا نستخدمها لتناول الطعام. قلت له: أنت تدين لي بحياتك، الآن حان دوركَ كي ترد الثمن. ماذا يمكن أن يكون يا سيدتي؟ يوم الجمعة صباحاً، تأتي امرأة سمينة لها شعر بنفسجي اللون، عندما تخرج إلى الشارع تقترب منها من الخلف وتذبحها، وتحضر لي لسانها كعلامة. سيدتي، لكني لم أقتل قط، قال ذلك وعيناه مقطبتان تخفيان قزحية بلون الكهرمان الأسود، وتوحي بإحسان يشي بأنه ليس لديه بؤبؤ، أو، بالأحرى، ليس لديه حدقة هائلة الحجم لا يمتلكها إلا صياد ليلي. فبدأ يلعب بأظافره وبتنظيف أوساخ خنصر يده اليسرى بسبابة يده اليمنى. لا تكذب، فكل رجال الديكة يقتلون، فكر بأنها مجرد دجاجة. لا أريد، سيدتي، فلقد تعبت من أن يظل الدم ملطخاً وجهي. غاليكستو، إذا لم تُحضر لسان البدينة، فاخرج من هذا البيت، ولن يبقى لكَ من خيار سوى العودة إلى مربّي ديكة المصارعة، وطاعة رؤسائكَ الذين سيطلبون منك أن تقتل آلاف المرات، بدينة ميتة مقابل حياة بلا أموات، فكر بذلك فقط.

ليلة يوم الجمعة، نظمت الافتتاح الرسمي للبيت. طفلاتي استقبلن كل من دخل بكوكتيل أحمر سميك. ما أحسن هذا المشروب «بلودي ماري»، عبارة راحت تُسمع وهي تطوف أنحاء الصالون الرئيسي. فكرت وقلت لنفسي: «يا لهم من غافلين مساكين، أطفال كبار مساكين وقباح تغطي أجسادهم ندوب يتفاخرون بها، كما لو كانت غنائم مسروقة في غمرة صراع حتى الموت، كلهم مساكين يحتفلون اليوم وهو

يحتسون اللسان الذائب لبائعة هوى عجوز وبدينة.» عندما انتهى مخفوق اللسان ومن ثم المجاملات والملاطفات، جاء الزبائن الذين باتوا يُعَدُّون بالعشرات لطلب المزيد. عندها عرضت ما تحتويه من مشروبات روحية رفوفُ الخزانة القابعة خلف البار، ورحت أقبض ثمن حتى بقايا المياه العالقة على أطراف الكؤوس حتى يبقى واضحاً في أذهان ذلك الجمع من البحارة الطاعنين بالسن المصابين بالسفلس، أن هذا البيت سيغدو بيتاً محترماً وليس أي حانة، وأنهم سيحظون باستقبال جيد، وحتى بفرصة للاستحمام طالما أن لهم جِزَماً ثمينة مصفوفة على السلالم. لم يفت حتى الذين ذهبوا شيئاً، فلقد تركتهم يخرجون وهم مدركون أنه لم يكن قد تبقى بحوزتهم شيء يقدمونه لنا. أما الذين بقوا، فسرعان ما توقفوا عن الهمهمة: ليس هناك من مزاج لا يمكن ترويضه بالمخمل المعتنى به جيداً على جسد بائعة هوى مغناج.

ملامح الازدهار والتغيير ظهرت مع كل رجل جديد كان يعبر البوابة، ويترك بين يدي كاليكستو ثمن الدخول إلى البيت.

كان عليَّ أن أمد يد العون إلى أرانا أثناء ولادتها؛ لأن جميع القابلات في الميناء كن مشغولات آنذاك بالاستجابة لنداءات الأطفال الألف الذين كانوا يولدون في تلك اللحظة، وبالعناية بما أطلق عليه في الشوارع ظاهرة «وباء الأطفال». كل شيء بدأ مع وصول تلك السفينة التي كانت تحمل على متنها محكومين بالأشغال الشاقة من سجن «سان كايتانو» الواقع في الشعاب الشمالية، حيث كان مصير كل الخلعاء الذين لم يتحملوا سجون الأرض الصلبة. هناك لم يحبسوا في زنازين، بل تركوهم في قناءات واسعة من اليابسة كي يقتلون بعضهم بعضاً.

الحراس ما كانوا يتدخلون؛ لأنه كان هناك تجارة و صفقات

قائمة على المراهنات، التي أبقت اقتصاد السجن نشيطاً، بيد أن العراكات توقفت والفناءات الواسعة تحولت إلى محيطات أبحرت فيها مراكب حربية لحلفاء كانوا يحمون ظهور بعضهم بعضاً مترافقين حتى يتسنى لهم الأكل وقضاء الحاجة والنوم، متجنبين بذلك أي احتكاك مع المراكب الحربية الأخرى على طول الساحل، ما جعل الحياة مملّة للغاية بينما كانت أموال الحراس راكدة لا تسيل، وكان لابد من تحريكها.

لذلك قرر القائمون على سجن «سان كايتانو» أن يصار إلى بيع السجناء في القارة تحت ذريعة أنهم كانوا قد أعادوا تأهيلهم، وذلك عندما يصل دوار البحر الخفيف إلى الفناءات الداخلية للسجن. تلك كانت المرة الثانية التي اشترت فيها بلادنا سجناء، ولقد اضطرت لذلك؛ لأن السجناء الأوائل، الذين جُلبوا قبل عشر سنوات خلت، راحوا يموتون في حفر السلسلة الجبلية وهم يستخرجون غبار الذهب لملء خزائن العاصمة. «الجدد»، الاسم الذي أطلقته الحكومة على الحمولة الثانية هذه، هربوا مستغلين أن الحراس خطر على بالهم المتاجرة في أعالي البحار، مع مشترين من القطاع الخاص، وبيع دستة من المتهمين.

عندما صعد الزبائن إلى السفينة، كانت إشاعة الصفقة قد سَرَتْ في الحانة، وفي كل ركن تجمّع سجناء ليتغوطوا في أيدي رفاقهم حتى يُظهرون، عندما تفتح البوابة، أسنانهم المشحوذة ونظراتهم القاتلة وأيديهم النتنة. الحراس حاولوا السيطرة على التمرد، لكنهم سرعان ما أدركوا أن أسلحتهم ما كان بوسعها أن تفعل شيئاً ضد ذلك الوباء، وأن تقززهم كان أقوى من الطمع أو الشعور بالواجب، لذلك هربوا باتجاه سفينة المشترين. هناك بلَغتهم قبيلة السجناء وابتلعتهم مع الزبائن المتفرّقين، الذين لم يكن لديهم ما يكفي من الوقت للفرار. من الحراس،

لم يتبق شيء بما في ذلك العظام، ومن المشترين، نجت الثياب، التي ارتداها على نحو سيّئ أكثر السجناء غنى بعد موجة عارمة من التشخيصات والشتائم. ومن نافلة القول: إن السفينة وصلت إلى الميناء، لكنها لم تبلغ إلى رصيفه، مثلما كانت تنتظر كتيبة الجنود المرسلة من العاصمة، بل توقفت تماماً في منتصف الخليج الصغير. نحن الفضوليين جميعاً تمكنا من رؤية كيف أطل السجناء من الشرفات وقذفوا بأنفسهم. الكتيبة انتشرت على الشاطئ، وراحت تطلق النار على كل جِرْمٍ شوهد ناتئاً فوق سطح الماء. غالبية السجناء بلغوا الشاطئ مفرَّغين من الهواء بسبب الثقوب التي تركتها الطلقات في أجسادهم، أما القلة من الناجين بحياتهم، فراحوا يختلطون بالسكارى في حانات المرفأ. سمعتُ بالكاد أصوات طلقات العيارات النارية، ركضتُ لإغلاق بوابات البيت لحماية طفلاتي، وجلست على نافذة غرفتي في انتظار أن تصل أرانا. رأيتها قادمة يطاردها خمسة من رثّي الثياب وناديتُ على كاليكستو لنجدتها، وقد خرج متسلحاً بالسيف القصير (يُستخدم في حصاد قصب السكر)، الذي كنا نهدد به الذين لا يريدون دفع المال، لكنه لم يتمكن من فعل الكثير؛ لأنهم سرعان ما شلّوا حركته بعد أن اجتمع عليه ثلاثة منهم، وسحبوه إلى الزقاق نفسه الذي كانوا قد أخذوها إليه. ابتعدتُ عن النافذة وذهبتُ إلى المطبخ لتحضير فنجان من الشوكولاته الساخنة. لم أخرج لمساعدتهم، ولم أخبر طفلاتي؛ لأنني أعتقد أنه ثمة لحظات في الحياة لا ينفع فيها سوى وصية واحدة: في عالم أكلة لحوم البشر هذا، لينجو بنفسه من يستطيع إلى ذلك سبيلاً. بعد مضي ساعة من الزمن، طرقوا على الباب، وأدركتُ أنهم هم وليس غيرهم. رافقتُ أرانا حتى حجرتها. وفي الطريق إلى هناك لم أتمكن من الحيلولة دون أن تخبرني كيف باعدوا سيقان كليهما هي وكاليكستو وربطوا أقدامهما

وأيديهما وبطحوهما على الأرض، وكيف عذبوهما لاغتصابهما، وكيف ملأت دفقات المني السميك جسدها وجسد كاليكستو.

الطفلة سرعان ما حلت نفسها من ثدي أمها وراحت تبحث بنهم عن نهديَّ، ربما لأن الحياة تبحث عن الحياة، ربما لأن البرد كان قد بدأ يتسرب إلى اللبأ، ربما لأنها لاحظت أن نهديَّ كانا كبيرين وتخيلتهما نبعاً لا ينضب من الحليب الساخن. بيديها متناهيتي الصغر، اللتين لم أتخيلهما قط ماهرتين في فن اصطياد الأثداء، تشبثتْ بثوبي ملطخة إياه بذلك الخليط الملون بلون المشيمة والدم. محتارة بتلك الحيوية الوحشية التي أظهرتها الطفلة، دفعتُها محاولة الإفلات منها، لكن بكاء الجرو تحول حينها إلى عواء ذئبة أفزع طفلاتي. وجدتني أتعارك مع الصغيرة المسخ التي كانت تصرخ كممسوسة، بينما فعلت كل ما هو ممكن لتحرير نفسي من بين أصابعها، التي أمسكتْ بي كمخالب نسر يمسك بفريسته. صرخت: انزعيها عني يا نيكنا. . اقتربت نيكنا خائفة. ما الذي حدث مع أرانا؟ سألتْ من دون أن تتجرأ على لمسها أو لمسي أو وقف ما بدا صراعاً على الحياة.

لقد ماتت وتركت لنا هذه الهدية الصغيرة. . انزعيها عني. . صرختُ مكتشفة عيني الطفلة البيضاوين الصغيرتين والمتحديتين. كانت تنظر إلى ما هو أبعد من عينيَّ، أعمق، كانت تنظر إلى أعماق ما خفي. أمسكت نيكنا بأحد مخالبها الصغيرة وحاولتْ تحريري، لكن هيهات، فلقد ذهبتْ محاولتها سدى. شحوب وجهها واصفراره عندما تراجعت قليلاً، كشف عن الرعب الذي كان يتملكها. في تلك اللحظة، دخلت نولفا، الأكثر شيخوخة بيننا، والتي علمتني السير على أرصفة المرفأ. علمت أن الذي أحضرها كانت خطيئتها بوصفها امرأة تركت أطفالها

حديثي الولادة يعومون في سلال بعرض البحر منتظرة أن تتكرر أسطورة موسى مرات ومرات بعدد الأطفال المتروكين.

دخلت وهي تخرج نهدها المتدلي حتى سرتها بهالتي حلمتين ممصوصتين إلى درجة أن لونهما لم يعد أمغر وتحولا إلى اللون الأصفر الشاحب. مشت على مهل حاضنة بصمتها صرخات الطفلة الجهنمية. داعبت رأسي مثلما فعلت مرات كثيرة عندما كنت أشعر بنفسي ضائعة، وكنتُ أعلم أنه ما لدي سواها، كما راحت تداعب ظهر الطفلة، بينما عادت الصرخات لتكون أقرب إلى بكاء كلب. وراحت تبحث بإحدى حلمتيها عن فم المفترسة العَطش، وفي الحال، أفلتت المخالب ثوبي وانطلقت لمداعبة الجلد البالي لمعلمتي. رأيتهما تخرجان من الغرفة بعد أن استمرأت الطفلة حرارة ثديي نولفا الهائلين وبعد أن شعرت المرأة العجوز في جلدها بخفقان قلب جديد.

ضغطتُ جفني لاستعادة العزم المفقود أثناء الصراع ومحو صورة العينين البيضاوين عديمتي الرحمة. شربتُ على مهل وباغتتني رائحة الموت التي فاحت من جسد أرانا. قلت: كاليكستو ومن ثم صرخت: كاليتسكو، وذلك كي يسمعني أينما كان مختبئاً. وما إن هممت بمناداته للمرة الثالثة حتى دخل. أمركِ سيدتي. . سمعت أنكَ كنتَ تسأل وأنت تسير فاتح الخطى بين طفلاتي. . وسألته: كيف تشعر اليوم حيال التعامل مع الموت؟ أفضل من الأمس وأسوأ من الغد، قال ذلك وقد خرجت كلماته من بين أسنانه مذعوراً من منظر جسد أرانا الخامل والدامي. افتح عينيكَ وانظر إلى نيكنا، طفلة مسكينة خائفة لم تشأ أن تفهم ما معنى نظرتي. اقتربت ببطء وهي تسير بمحاذاة كاليكستو، الذي لم يكن بحاجة إلى مزيد من الكلمات لمعرفة ما كنتُ سأطلبه منه. أنزلنا

ثلاثتنا الجثة إلى وسط الصالون الرئيسي للحانة، متبوعين بموكب طفلاتي في وداع أخير ذكّرنا بنهاية جميع القصص.

طفلاتي طأطأن رؤوسهن مزينات شعورهن بخصلات خادعة استعداداً لسهرة تلك الليلة، واللواتي كنّ لا زلن يدّعين بأنهن مؤمنات صلّين بصمت في نفوسهن لكي يتمكنّ من العيش متحررات من أداء وظائف السرير واثقات من أن الله، من خلال نصيحة ابنه يسوع، سيعرف كيف يحترم بائعة هوى تطرق بوابات السماء. أما نحن اللواتي ما كنا نؤمن إلا باللحم، الذي يهبنا إياه لنعيش، فلقد ذهبنا إلى حجراتنا بحثاً عن هدايا تزيّن رحيلها. ياهوسكا، الأكثر شباباً، التي لم تكن قد امتلكت بعد ردفين يشبهان البرتقالات الشائخات، ركضتْ نحو غرفتها وأحضرت زوجاً من الأقراط كانت أرانا قد أعارتهما لها في اليوم الذي قال خطيبها فيه إنه كان سيأتي ليدفع لي كي أحررها.

ذلك الصباح، ارتدت ياهوسكا أطول ثوب في خزانتها والذي يظهر بالكاد الفخذين ويكشف الظهر، ذلك الثوب الذي قدمته لها في أول ليلة لها؛ لأن المبتدئات يبدين أكثر إثارة كلما كشفن أقل، فضلاً عن أنها انتعلت الصندلين الجلديين اللذين كانت تحتفظ بهما لأيام الاستراحة، واللذين يسببان ألماً شديداً لها في بطني الساقين جراء طول فترة البقاء منتصبتين معانقتين السماء كي يعطيها الزبائن طعماً.

عند الساعة التاسعة صباحاً، كانت قد جلست على البار تنظر إلى الساعة، بقيت هناك حتى أصبحت ملساء، تلك التجعيدات التي أصبحت ناعمة بمساعدة نولفا، بقيتْ هناك حتى قرعت الجرس معلنة عن أنهن جميعاً كان يتعين عليهن الذهاب إلى الاغتسال؛ لأن العمل اليومي قد بدأ. هناك شاهدتُها جالسة طوال الليل متجنبة الرجال وهي

تشرب رشفات من الماء وعينها على البوابات المتأرجحة في حركة دؤوبة، هناك تركتها حتى الفجر، حينها اقتربت منها وقلت لها: يا طفلتي، كلتانا على علم أنه لن يأتي، وأننا هنا كي نتصنع الحب وليس لنشعر به. نهضتْ، وقبل صعود السلم إلى الحجرات، استدارتْ وقالت لي: سيدتي، سأبقى، ليس لأن ذلك الوغد خدعني، بل لأن السعي خارج حدود ما أملك لا يستحق عناء المحاولة. لقد وضعت يا ياهوسكا، أيتها العروسة الجميلة، القرطين لأرانا وقفلتِ عائدة إلى حجرتكِ لتخلدي إلى النوم استعداداً لليل هو بيئتنا.

جميعهن تبعنها ولم تبق سوى ساثاما الناعمة والحلوة، التي دخلت يوماً ما إلى بيتي باحثة عن عمل، كان لها شعر قصير، ما جعل أمرها يختلط علي فظننت أنها كانت صبياً، وحينها انكبت على العمل طوال أسبوعين مع كاليكستو، إنها الفتاة التي لم تخلع القلادة التي أهداها إياها والدها يوم نزل من السفينة كجندي من جنود الوطن، كي يقتله، بعد مضي أسبوعين فقط، تاجر مخدرات ثمل في حانة، إنها الفتاة التي جاءت ذات يوم لتسألني، جراء ذلك، إذا كان بأستطاعتها أن تكرس نفسها للعمل مع العسكريين علّها تجد ابن العاهرة الذي قطع حنجرة والدها، إنها الفتاة التي قررت حينها أن تجعل من نفسها الأكثر طلباً؛ لأنها تعلمت كسر القضبان بحركة ردفيها خالطة اللذة بالموت البطيء للأعضاء.

بقيت ساثاما و كاليكستو معي؛ لأن أرانا كانت وعدتها بأن جسدها لن ينتهي به المطاف مرتطماً بأعمدة الرصيف مثلما انتهى مصير كل أموات هذا المرفأ من دون تعليق. قالت: من فضلك، ادفنها، ولتأكلها الديدان خيراً من أن تنتفخ وتنفجر مصطدمة بسفينة. فقط إذا

حفرت، أجبتها مبتعدة تاركة إياها مع كاليكستو، متذكرة أن اهتمامي منصبٌ على النساء الأحياء؛ لأنه في بيتي لا يقبل الزبائن الذين يبحثون عن أموات. وبينما كنت أصعد السلم، سمعتهما وهما يأخذان الجثة إلى فناء البيت.

فوق، في الطابق العلوي، وجدت باب الحمام مفتوحاً، والضوء الذي كان يتسرب من مناور السقف مقطوعاً بطيف نولفا، وبظهرها العاري وفستانها المثبت بردفيها العريضين اللذين كانا لا يزالان قادرين على تقديم ما يكفي من المتعة. اقتربتُ رويداً رويداً ووجدتها مفتونة بالانعكاس الظاهر في المرآة: عجوز ذات شعر أشيب ملموم في ظفائر تلامس كتفيها، وطفلة متوحشة تمص ثديها الساقط. وبينما كانت إحداهن تغني كلمات مبهمة نيّمت الذبابات اللواتي كن يرغبن بالفرار لأكل الموتى، كانت الأخرى تجعل يديها المتناهيتين في الصغر ترقصان في الهواء كما لو أنهما تلاحقان الأحلام. سألت: ماذا سنفعل بها؟ سأحتفظ بها لنفسي، فهذه هي اللحظة المناسبة لتعطيها فرصة لتحيا. قلت باقتضاب وأنا اقترب منهما: تحت مسؤوليتك. في فم الطفلة كانت تتوارى ابتسامة، الأمل في حياة تتفتح في عالم يستنشق فيه الموت. في وجه العجوز، بدأت العينان تختبئان خلف جفنيهما المتجعدين، وغناؤها لم يكن سوى تنهيدة تتهرب من شفتيها المغلقتين.

ليس بالحب وحده يعيش الأطفال، قلت لنولفا قبل أن أخرج من الغرفة. الحب يحرك جبالاً، سمعتها ترد وهي لا تزال تغني، والجبال تتدثر بغابات كثيفة تشرب حليب الأرض، حليب الحب، حليب الألم، حليبي. حليبي الذي لم أدرّه ليشربه أطفالي الذين لا يعدون، والذين لابد وقد أصبحوا اليوم ملوكاً يحررون شعوباً مستعبَدة، هي ستشرب

الحب الذي أكنّه في قلبي لكل أولئك الأبناء الذين لا أملكهم، ستتغذى على حليب جبالي. لا أريد المزيد من الأموات، كانت العبارة الوحيدة، التي حاولت قولها قبل إغلاق الباب، وتركها في خضم تلك المياه الساكنة من السلام الذي كانت نولفا تبتكره.

عدتُ، إذن، إلى غرفتي، إلى السرير، الذي كان ينتظرني منذ ليلتين، إلى المكان الوحيد الذي تركتُ الزبائن يلمسونني فيه، عدت مقتنعة بأن سيدة هذا البيت تتمتع بامتياز اتخاذ القرار المتعلق بمن يحشر نفسه بين شراشفها. لم أنم، إذا كان ما يفهم من النوم هو إغلاق العيون وترك العالم بأسره يطفح بالمعاني، بل، بالأحرى، بقيتُ أنظر إلى السقف المتشقق، متسمرة في العينين البيضاوين اللتين اخترقتاني، في اليدين الصغيرتين اللتين قيدتاني، في تجاعيد نولفا التي احتضنت غضب الطفلة، وفي تلك الأغنية التي جعلتني أشعر بأني ذبابة. لم أنم، لكن الوقت مضى بسرعة مذهلة بينما راحت أشعة الشمس تنعكس على وجه القمر، وضجيج البواخر وهي تفرغ حمولتها تتحوّل إلى قهقهات نتنة لبحارة قذرين. حينها، قرع كاليكستو الجرس، وأنا وجدت نفسي مرتدية ثيابي واقفة أمام مرآة غرفتي وشعري ملموم في كعكة متجعدة بمؤخرة الرأس، مع زنبقة في الصدغ، فلقد أفزعتني رائحة الموت المنتشرة في البيت. سيدتي، أظن أن المخلوقة ماتت، سمعتُ ما قاله كاليكستو لي وهو واقف عند الباب، ذلك أني لم أسمع صوتها طوال اليوم. سرت ببطء باتجاه غرفة نولفا، فتحت بابها من دون أن أقرعه، لعلمي أن يديَّ هما المفتاح الرئيسي لسقّاطات أقفال أبواب هذا البيت جميعاً، لكني كنت خائفة من رؤية طفلة ميتة بين يدي عجوز شبه ميتة.

كانت نولفا جالسة على السرير تغني أغنية من أغنيات المهد

تتحدث عن حوريات ورغبات، عن قصور تعزف الأميرات فيها على القيثارة في الصباح ويلعبن بمحاذاة بحيرة في المساء. نظرتُ إلى عينيَّ بينما كانت تخرج من بين شفتيها كلمات تطوف وجنتي الطفلة وتداعبهما . سألتُ: هل ماتت؟ أجابت: إنها تأكل، تشرب حليب الحياة. اقتربتُ وتيقنتُ من أن الحلمتين المتشامختين تدرّان نقاطاً مرمرية تلتقطها الصغيرة بلسانها متناهي الصغر. قالت نولفا : رقيقة وهزيلة كغيمة، لا تمص، تلعق فقط. إنها بائعة هوى كامنة، فكرت وأنا خارجة من الغرفة وعدت إلى عالم الواقع بينما تذكرتُ أن هناك بيتاً لابد من المحافظة عليه.

في تلك الليلة، لم تعتن نولفا بالزبائن، ولا في الليلة التالية ولا في أي يوم آخر؛ لأن الطفلة ظلت ملتصقة بثدييها كعلقة. ما كانت تقبل تحرير حلمة إلا إذا رأت نذر الأخرى شبه متحقق وأصبح جاهزاً لتغذيتها . أدركتْ نولفا ذلك حين خرجت من الحمام وأخذتها إلى الغرفة. الطفلة أبقت عينيها البيضاويتين الهابطتين مغلقتين ومن دون أن ترضع، لكنها راحت تزفر ابتسامات متلاحقة. لذلك سحبت نولفا نهدها وأرادت أن تمددها بجانبها على السرير، لكن الطفلة، التي كانت لا تزال نائمة، تذكَّرت القدرة الهائلة لصوتها، فارتجت النوافذ والجدران والقرميد والأغطية والشراشف والسيقان وحتى النجوم، التي لم تظهر في ذلك اليوم المصحوب بطبقة من الضباب الكثيف الملازم للأرض، البيت بأكمله استيقظ، وكذلك البحر الذي أوقفت السفن فيه مراجلها اعتقاداً بأن صفارة الفنار قد انطلقت.

في السوق، صمتت صيحات بائعي الخضار؛ لأنهم سمعوا صرخة طغت على أصواتهم الخائرة بفعل شرب الروم. وفي عمق المحيط، غنت

أنثى حُوت على أمل أن يكون العواء عواء ذكَرها العاشق، الذي يناديها من الركن الآخر من الكوكب.

نولفا، الطيبة مع الطفلة مثلما كانت معنا جميعاً، لم تعد تغطي ثدييها لتسهيل الحركة البندولية الدؤوبة بين نهد وآخر. كما لم تعد تستقبل الزبائن؛ لأني لم أعد أسمح لها بالنزول إلى الصالون الرئيسي. لن ينقصكِ الطعام ولا السرير، لكني لا أريد أن تخيفي الرجال بتلك الحيوانة الضارية المعلقة. نولفا قبلتْ فرِحة، ذلك أنها تمكنتْ من الاحتفال وهي في الثمانين من عمرها بمعجزتين مجتمعتين ومتداخلتين في آن، الأولى أن تعتبرها سيدة البيت متقاعدة، والثانية أن تهبها الحياة ابنة تحبها. وهكذا أمضت الأيام جميعها في غرفتها، وهي تذرع المكان متنقلة بين الكرسي الهزاز والسرير، وتروي الحكايات لطفلة لا تكل ولا تمل من الأكل والنوم والنمو وتنقلها بفمها الصغير بين نهد وآخر عندما تبدأ قطرات الحليب تختلط بقطرات الدم، بينما جعل حرقان النهدين الجريحين الأمر لا يطاق بالنسبة لها. وبقيت على هذا المنوال حتى الليلة التي منحتها فيها الحياة الهديةَ الثالثة: رجل يجرؤ على حبها. حدث ذلك في أعياد العذراء مريم، حين فتح البيت أبوابه مبكراً منذ الساعة الثالثة مساء.

في تلك الساعة كان الموكب الديني قد انتهى واستقر عند شاطئ الرصيف، والرجال كانوا في طريق عودتهم إلى دير تل العذراء، الذي كانوا قد استولوا عليه في الصباح، وراحوا يتسكعون في كل أرجاء المرفأ متوقفين أمام كل باخرة لمباركتها. وبعد أن أعادوها إلى مذبحها، استهلّوا الموكب الديني الثاني المخصص للسير في الشوارع بحثاً عن طفلات مهملات لافتضاضهن، بحيث لا يبقى سوى عذراء واحدة فقط في الميناء. كانت اللحظة التي تُغلق البيوت فيها بينما نفتح نحن أصحاب

المواخير أبوابنا. في بيتي، لم يكن لدينا عذراوات حتى على الجدران، لكنهن جميعاً كن قد اغتسلن الليلة السابقة بحجر النور كي تتغلق مهابلهن التالفة وتعود كما كانت أول مرة.

ذلك المساء كان مساء صرخات مكروبة حزينة، وزيوت على طاولات الليل وشراشف بيضاء تيقن كل زبون لامسها من أصالة الخداع، ذلك أن أكثر الرجال وحشية يواصلون اللعب كأطفال: قولي ما شئت من الكذبات طالما أني قادر على إدماء باطن فخذيك. وهذا ما حدث فعلاً، فعند التاسعة مساء كانت كل طفلاتي قد اخترقن مرات عديدة، فتلون صلاة للعذراء لشكرها على هدوء وصفاء يومها. قبل لحظات من صعودنا أنا وكاليكستو إلى حجرتينا، وكنا آخر اثنين نهجع للنوم دوماً.

طرق عجوز أشهب الباب، أشهب بفعل السنين التي تعيَّن عليه قضاؤها مدفوناً في قدور البواخر، أشهب بعينيه، اللتين سمحتا برؤية كيف دخل في صراع مع نفسه ليختار بين متعة اغتصاب طفلة غافلة ما تأتي من السوق أو إنفاق أجره السيئ بالقدوم إلى بيتي في اليوم الذي أغلقنا فيه باكراً، أشهب بفعل الغيمة التي جاءت معه تحوم فوق رأسه، والتي أمطرت قذارة عندما طرق الباب للمرة الثالثة وكاليكستو فتح له صارخاً: «لقد أغلقنا»، أشهب من خلال ردِّه متضرعاً حين قال: من فضلكم، امرأة من أجل هذه النفس الشائخة التي ضاع منها كل شيء، أشهب من خلال ابتسامته الأصيلة الخالية من الأسنان والتي تظهر لساناً رمادياً لشخص نسي الكلام تقريباً؛ لأن فرقعة النار لم تجب على أسئلته قط، أشهب من خلال حركته البطيئة التي تبدت عندما اقترب خلف كاليكستو وعاد ليطلب امرأة تحرره من غواية العذراوات.

نظرتُ إلى كاليكستو وفي عينيه الهاربتين تذكرتُ بياض عيني الطفلة وانعكاس أغاني نولفا فيها. لا توجد إلا واحدة، عجوز ومستنفدة وتربي، قلت له ذلك على أمل تثبيط عزيمته. إنه أكثر بكثير مما يمكن الحصول عليه إذا أراد المرء التصرف بلباقة في يوم العذراء، أجاب بابتسامته الرمادية الفارغة. صعدت درجات السلم مع العجوز تاركة إياه في المقدمة للحيلولة دون أن تلعب نظرته الرمادية بما يلوح تحت تنورتي، ودون أن يعبث بنضارة ما تبقى من صلابة في فخذيّ. طرقتُ الباب طرقات خفيفة وأنا على علم بأن نولفا ما كانت لتستجيب لتلك الطرقات مثلما لم تفعل خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة، ولقد وجدتها عندما فتحت الباب بنفسي جالسة، عيناها مغمضتان كما لو أنهما ما فتحتا قط، مع الطفلة المنهمكة باصطياد قطرات مرة من الحياة.

قلت: ثمة زبون. لم ترد إلا بإيماءة تعرف كيف تقرؤها أي بائعة هوى متمرسة: فتحتْ فخذيها قليلاً، بينما سمح الضوء المنسل من المصباح الكهربائي برؤية متاهة التهاب النسيج الخليوي والتجاعيد التي ضاعت في أرض لم يوعد بها أحد.

علمتُ على الفور أنها بحاجة إلى أيدٍ إضافية، وأنها لن تترك الطفلة، وأنها في تلك اللحظة كانت تمتحن مشاعر الحب والاحترام اللذين طلبت منها امتلاكهما، كما أدركتُ أنه كان يتعين على يديّ أن تغسلا ذلك العضو الرمادي، وأن تجلساه على السرير ومداعبته حتى تنتفخ خرابته، وكذلك حملها إلى ذلك العرش المحتضر وتوجيه عملية اتحاد تلك الأجساد الثلاثة.

تركتُهم ملتصقين في السرير وأردتُ اللجوء إلى سريري مع رغبة

في نسيان ما كنت أكن لنولفا من حب، لكني لم أفعل ذلك، وبقيت واقفة عند الباب أتفرج، ربما في انتظار النهاية، وأنا على علم بأن الغبار لا ينتهي عندما تتفجر الأجساد، وأنه بعد ذلك يجب فصلهم عن بعضهم بعضاً والتسلق حتى الكرسي الهزاز. حينها، بقيت وأنا أرى كيف تواصل ذلك الثالوث المقدس، وكيف حوّلت نولفا ذلك الجسد الرمادي إلى كرسي هزاز جديد، حيث تمكنتُ من رؤية العينين الغائرتين لكهل أجبر يديه المتعبتين على الإمساك بالتجاعيد اللينة لامرأة عجوز، والتمكن تالياً من التحدث بلغة الأجساد المتحركة، وتمكنت كذلك من رؤية الطفلة حاكة أنفها عندما انطلقت عصارات لذة محتضرة، ورائحة الجنس الميت ملأت الحجرة أولاً، ثم البيت وراحت تسير عبر الشوارع المقفرة في مرفأ ينام باكراً يوماً واحداً في السنة. حينها غادرت المكان، فكل شيء كان على خير ما يرام.

أخبرني كاليكستو أن الرجل العجوز خرج في وقت مبكر من الصباح، عندما كان يكنس ما خلّفه يوم العذراء من آثار، ترك لي ورقة نقدية متجعدة كتب عليها بحروف كبيرة ومهملة: شكراً. أعود عندما أرجع إلى الميناء. كذب. فلقد رأيته تلك الليلة نفسها داخلاً إلى البيت بخطواته الثقيلة حاملاً كيساً بيده أتى ليتركه لي على طاولة الحانة بينما قال لي: سيدتي، سأبقى حتى ينتهي ذلك المال. قلت: في حال وافقت نولفا فقط. عندما دخلنا الحجرة، كان فخذاها مفتوحين وتبدّل نهديها للطفلة.

يداي عرفتا ماذا تفعلان على الفور، وسرعان ما حررتاني من المهنة ومتطلباتها. هذه المرة لم أبق منتظرة نهاية القصة. خرجتُ وركضتُ باتجاه الباب، لكن يدي اليمنى ظلت ملتصقة بسقاطة الباب؛

لأن حالة من الفتور اللعوب راحت تنوِّم أصابعي، ثم كفي وبعدها كلّ يدي إلى أن طالت، في نهاية المطاف، نصف جسدي. كان فتوراً حلو المذاق كأنه مطعم بالسكر ذكرني بزيارة السيرك، الذي كان يطوف قرى الساحل وبلداته. تلك الزيارات التي كان كل شيء فيها يفوح برائحة أقطان السكر، وكان يضفي عليها شيئاً من السحر، أولئك الحكواتيون الفكاهيون الذين يطلقون النكات، ويحملون معهم العسل والتفاح المعطر بالسكر، زيارات إلى حلقات السيرك كنت أنظر خلالها إلى ما هو أبعد من سياج القضبان الحديدية؛ لأنه ما كان لدي قط ما يلزم من النقود لشراء تذكرة دخول، حلقات السيرك التي لم أتمكن من الدخول إليها إلا حين وهبني باطن فخذي ما يعينني على العيش، والتي كنت آكل أثناء زيارتها التفاح المعطر بالسكر حتى التصقت أسناني وقالت نولفا لي: إن بائعة الهوى بدون أسنان لا يمكن أن ينظر إليها جيداً إلا عندما تزينها ثنياتها. كانت تلك الذكرى كالفتور المحلّى بالسكر وقد تحول إلى تنهيدة طيارة رحلت إلى يدي لتحريرها من قبضة الباب. حينها فقط استطعت المشي، ولقد فعلت ذلك ببطء شديد وأنا متجهة إلى السلم محاولة تنقية السمع للتكهن برموز الصمت الذي بشر بنشاط الليل. تمهلت دقائق في نزول الدرجة الأولى من السلم مفتونة بالاعتقاد بأني كنت أسمع صرير سرير نولفا على إيقاع المد والجزر. الخطوة الثانية لا أتذكرها، لم تشأ التقدم؛ لأن الوقت تحوّل إلى ضباب لبنِّي كثيف صعد عبر الدرجات مفزعاً قدميّ لكن من دون أن يسمح لي بالتراجع، فقبل أن أصل إلى محاولة ذلك، اجتاحني ذلك الشعور لثوان، شاردة تحولت إلى دقائق بدت كأنها ساعات. على حين غرة، وجدت نفسي خلف طاولة الصالون الرئيسي، فأغلقت الحانة ورحت أرتب الزجاجات التي نسيها الزبائن مفتوحة.

في اللحظة التي أسندت خلالها رأسي إلى وسادة الريش، كانت غمزة عين كافية ليتحول الليل إلى نهار وأجد نفسي على مائدة الإفطار مع كاليكستو في المطبخ وأنا أصغي إليه وهو يسألني: سيدتي، هل نولفا برفقة أحد؟

وقبل أن أتمكن من الرد عليه، كانت زوبعة الزمن السديمي قد أخذتني من جديد إلى حجرة نولفا، فوجدت نفسي هناك أقف أمام بابها حاملة بين يدي صينية مزودة جيداً بالخبز والقهوة لم أتمكن من تسليمها لها؛ لأني عندما حاولت رفع يدي لتدوير مقبض الباب، وجدت نفسي في المطبخ من جديد واقفة أمام المائدة مع الخبز والقهوة نفسيهما في الصينية نفسها متخيلة اليدين الرماديتين للرجل الرمادي وهما تنقبان في ثنايا وتجاعيد مهبل نولفا الشائخ.

وماذا عن الطفلة؟ سألت نفسي ذلك السؤال قبل أن يصبح كل شيء جديد ضباباً كثيفاً ملاصقاً للأرض، بينما أطلقني الزمن مرة تلو الأخرى إلى ليال مكررة، وذلك في الوقت الذي كانت طفلاتي يسمعن فيه الجرس ويصطففْن على مهل باتجاه الحمامات لغسل فرحات الأحلام، استعداداً لاستقبال الأجساد العطشى لبحارة شائخين يحفزون بأيديهم الظمأى قطع اللحم المتدلية التي أرادوا أن تذكرهم بإشراقات سنوات عمرهم الذهبية، ليال متكررة كانت طفلاتي خلالها يتبخترن بأجسادهن المغطاة بأقمشة شفافة ويصطدن النظرات التي كانت تتقرب منهن للجلوس إلى جانب أصحابها وتبادل القبلات من خلال الأقداح، لكن بالسرعة التي جهزت نفسي لإزالة أغطية الزجاجات، أخذتني دوامة الضباب من جديد إلى الصباح وإلى باب غرفة نولفا، إلى صينية الخبز والقهوة، إلى محاولة لمس مقبض الباب، إلى التفكير في

الموت، في الطفلة، وفي أن سكان تلك الغرفة لم يأكلوا قط، وإلى أن أقول لنفسي: «لا، لا تكوني كاذبة، فهناك ثمة واحدة تأكل دوماً»، وكذلك إلى تخيل الرجل الرمادي جالساً تحت نولفا ماداً قضيبه الجاف فيها بينما يتعلق فمه بالثدي الحر ويرضع، والطفلة تتعب من النهد الآخر وتريد تبديله ونولفا تدرك ذلك وتشعر بالجوع أيضاً، وتتراجع عن الرجل الرمادي لترضع من نفسها، واكتشفت، إذن، أن الجميع في تلك الغرفة يتغذون على نولفا في دورة حياة تدور وتدور بلا كلل أو ملل.

بصورة مؤقتة، لم يعد هناك ضباب كثيف ملازم للأرض ولا دوامات زمن، لم يكن أمامي سوى السلم والثنايا الجديدة في اليدين وبطء الثواني المتقطرة وصورة شاب طويل بشعره المحمر المسترسل ومنكبيه العريضين ولحيته الفتية وابتسامته الواسعة وأسنانه اللامعة، التي تماهت مع بريق تلك العينين اللتين رمقتاني وعانقتاني واقتربتا مني، وأغوتاني بالصوت الهامس الذي راح يغني في مسمعي ويقول: شكراً سيدتي. رأيته يبتعد باتجاه المخرج، وحينها فقط تعرفت، وأنا أراه قبالة الضوء الساطع على الباب، على صورة الخيال الرمادي، التي كان صاحبها قد دخل متسولاً امرأة منذ موجات ضباب أبيض كثيرة خلت.



في الماضي كانا نهدين يفتقران إلى حياة، لكن مع مجيء الطفلة، راحا ينزان نقاطاً من الحليب، وبمشاطرة الرجل الرمادي، أصبحت تلك النقاط دفقات صغيرة لم تتوقف عن الإرضاع قط. الطفلة تكفلت

بأحدهما بينما كان الآخر يبلل قطع القماش التي كانت نولفا تضعها كي لا ينزلق الحليب عبر جسدها قبل أن يستقر في فردتي حذائها.

ذات صباح، قبل بزوغ الفجر، دلفت نولفا إلى غرفتي ضاغطة نهدها الحر بيدها التي لم تتمكن من السيطرة على سيل الحليب المتدفق منه. لم يعد لدي قطع قماش ناشفة، قالت مغسولة بالدموع المنزلقة حتى صدرها، بينما كانت الطفلة تلعق مستطعمة تارة بالحليب وتارة بالدموع. نهضت بلا عجلة علّ عدوى هدوئي تنتقل إليها. هبطنا متعانقتين إلى المطبخ، وأوقفتها أمام القدر الوحيد، الذي كان على المائدة، ذاك القدر الذي كنا نعد فيه الشوكولاته. دفقات الحليب أحدثت قرقعة معدنية أدت إلى لفت انتباه كاليكستو المتيقظ دائماً لأية أصوات غريبة في البيت. ونظر إلينا من عند الباب الذي يفضي إلى الفناء دون أن يتفوّه بشيء، ربما لأن أحداً ما كان يعلم ماذا يقول حين يرى طفلة وحشية معلقة بامرأة عجوز تملأ بحليبها قدر الشوكولاته. قلت له: خذها إلى الخارج واجلس معها إلى جانب البركة.

بقيت في المطبخ أنظر إلى القدر والموقد والحليب متحسسة أشعة الشمس التي بزغت في تلك اللحظات. استيقاظ مبكر بشر بتغييرات في البيت وفي حياتي أيضاً. أشعلت الموقد ووضعت قدر الشوكولاته. «بالكاد سيلاحظن الفارق»، فكرت وأنا أُخرج من المؤونة أقراص الشوكولاته وكتلتين من الخبز، وعندما دخلن طفلاتي باحتفائية مهرجان عيد القديسين إلى المطبخ، كان الإفطار قد أصبح جاهزاً، فجلست على رأس المائدة وجميعهن أخذن مواقعهن وعلائم الفرح بادية على وجوههن. قلت متناولة رشفة: من اليوم فصاعداً سيكون لدينا وظائف جديدة.

سألتْ مونينا: لماذا؟ سؤالها أكد لي أنهن كن قد نسين من كان

ينام خلف باب الجرة التي كنت أزورها وحدي. لذلك لم أرد حتى يُنهين جميعاً تناول طعامهن مستسلمات لصمتي الذي حوّل فرحهن إلى فضول لا يخلو من الشعور بالذنب. ومع الرشفة الأخيرة، قلت لهن: هناك في الخارج تجلس نولفا والطفلة وكاليكستو أمام البركة. تراكضن لإلقاء نظرة على نولفا، التي عندما لاحظت أنها تحت المراقبة، جففت دموعها وحاولت الابتسام. دفقات نهدها الحر انحرفت عن مسارها للحظة وبللت قدما كاليكستو، وحينها ارتدت نظراتهن نحوي، فقلت لهن وأنا أجمع الأطباق عن المائدة: من اليوم فصاعداً سنتناوب على مرافقتها.

قسمت اليوم إلى ست نوبات بحيث تستمر كل نوبة أربع ساعات، وهكذا كان يتعين على كل طفلة من طفلاتي مراقبة نولفا ثلاث مرات في الأسبوع، واحدة منها أثناء الليل وكل شهر كنا نبدل النوبات. أنزلنا كرسي نولفا الهزاز، وأمضت أسابيع جالسة ترقب كيف كانت البركة تمتلئ بالحليب، وكيف كان كاليكستو يذهب بين هنيهة وأخرى لانتشال الحليب بحلة لتحضير شتى أنواع الشوكولاته والعصائر وشتى أصناف الحساء والأجبان والزبدة والألبان والحلوى، وكل ما في دفتر قائمة الوصفات التي تحتوي على حليب؛ لأنه سرعان ما اعتدنا جميعاً في البيت على تناولها والاستمتاع بها.

أما نولفا، فكانت تتحرك بين حين وآخر فقط لأجل تبديل موضع الطفلة، وبصبر العليم بأسرار الحياة ودهاليزها، كانت تصغي لحكايا طفلاتي بلا انقطاع، بينما كنت أغطيها كل مساء، قبل أن تبدأ النوبة، ببطانية وأتركها بين يدي من كانت ترافقها، وكانت نولفا، حينئذ، تغلق عينيها، لكنها تبقى متيقظة دائماً. وكنا في أيام الأحد نجلس جميعنا

حول البركة وكنا نعرب، بالصلاة، عن امتناننا؛ لأن البيت لن ينقصه الطعام يوماً.

لا أعلم كم من الأيام مكثتُ هناك، مهدهدة الطفلة المتوحشة بين يدي، ولا أعرف كم مرة رأيت إحدى طفلاتي تدخل راكضة لتقول لي: إن البركة طفحت وكان علي أن أصرخ: كاليكستو، اركض إلى الفناء لانتشال عطايا الحليب، التي انتهت إلى سقاية النباتات محدثة بركاً من الوحل الحليبي، الذي تعلمت بعض الذبابات كيف تولد فيه، ذبابات ما عادت تلسع قط، ذبابات لطيفة تطير عالياً وتؤز في السماء بشيء بدا أغنية مهد تنشد هدهدة الطفلة.

حينئذ، أصبح الفناء واحة سلام.

كل شيء كان يسير على خير ما يرام إلى أن أنهكنا من النوبات، ومن الركض بحثاً عن كاليكستو، ومن سيل الدفقات البيضاء، ومن طنين الذبابات السعيدات الذي لا يكل ولا يمل. فانتهزت فرصة قدوم يوم الأحد مستغلة الاجتماع حول البركة للإعلان عن أنه اعتباراً من ذلك اليوم سنغلق الحانة حتى إشعار آخر. لأي غرض؟ سألتْ نيكنا. لكي نتمكن نحن من أخذ قسط من الراحة، ولكي يتمكن كاليكستو من تشييد بركة في وسط الصالون الرئيسي، وبالفعل، فلقد انكب كاليكستو في تلك الليلة نفسها على مهمة حفر حفرة. في البداية تفجرت تحت وقع ضربات الرمح الخزفيات الحجرية، ومن ثم انتشل، وهو بكامل هدوئه المعهود كما كان يبدو وهو يفعل أي شيء، ملء رفش تلو آخر التراب القاسي، الذي راح يحمله في شوالات وينقله إلى الشاطئ. وفي غضون أسبوع كانت الحفرة جاهزة، وبدأ بتغطيتها ببلاطات حمراء طعمها بمرايا دائرية صغيرة.

وعندما انتهى من مهمته، ذهب بحثاً عني في الفناء، حيث بقينا بلا حراك منذ يوم الأحد الذي عقدنا فيه الاجتماع. في ذلك اليوم وبعد أن خرج كاليكستو بمساعدة رمحه من الحفرة، تمددنا على الأرض لتبادل أطراف الحديث، وسرعان ما بدأت لعبة التكهن بأشكال وهيئات ارتسمت على سطح السحب اللعوبة التي كانت تحوم فوق رؤوسنا .

وهكذا أدركنا الليل وبدأنا نبتكر الأبراج والنجوم، أولاً هيئة أسد، ومن ثم هيئة دب، وبعدها شكل امرأة بتنورة رفعتها الرياح، وبالتالي، فإنه كان من السهولة بمكان التفكير بأن السماء الليلية كانت ستسمح لنا بسرد قصة المرأة الخالية من المخاوف التي ضاعت في الغابة وأغوت أسداً حتى يحميها من الدب الصياد، وكذلك قصة الصراع بين الحيوانين المفترسين وصدام الأجهزة العضلية والأنياب والمخالب، والنهاية المميتة للملكين منتصرين تحت قدمي امرأة وزعت يديها مناصفة لمداعبتهما، بعدها تخيلنا السماء وهي تمطر نجوماً عابرة طلبنا منها أماني لم تتحق في الماضي قط، لكنها ليست منسية لهذا السبب.

كانت المرة الأولى، إذن، التي نشعر فيها بالجوع، لكن أي منا لم تنهض من مكانها، ذلك أن نولفا سددت إلى أفواهنا الدفقات التي تخلت عنها الطفلة وتركتها حرة. وهكذا وبينما نحن نلعب مع السماء ونشرب حليب نولفا، تحولت الغيوم إلى شمس ومعها جاء القيظ الخانق، وحلت الرغبة في مياه تندلق على الجسد وفي الإحساس برغوة الصابون المعطر التي ترد رائحة المرفأ الكريهة. لكن شيئاً فينا حال دون أن نترك ذلك الفناء، كان إحساساً يتحرك بين المعدة والرئتين، في تلك الفجوة التي يقول كثيرون أنهم يشعرون بالعشق في موضعها. ساثاما كانت الأولى في النهوض متبخترة بساطورها المخصص لكسر القضبان، مشت حتى

البركة وبللت يديها، ثم وجهها قبل أن تنظر إلينا بابتسامة هربت من شفتيها كانت مستفزّة لنا بقدر ما كانت عليه حركات وركيها في عيون الرجال.

تبعناها وتحلقنا حول البركة، وبللنا جميعنا أيدينا ووجوهنا بذلك الحليب الفاتر. حينئذ، استردت أيادينا حياة من نوع خاص، فسقطت المحابس، وتحررت الأزرار، وقفزت المشابك، وتركتنا في عري راح يبحث بشراهة عن مداعبات فاترة. صفعات الأيادي على سطح البركة الجديدة ازدادت حدة ورحنا نتراشق بالحليب ومضت ساعات ونحن نلعب على هذه الحال كطفلات يلعبن لعبة حرب الحليب حتى تعبت أرجلنا وتداعت مع حلول المساء، طفلات بأفواه مفتوحة لتلقّي عطايا نولفا، وكان الحليب هو نفسه الذي أدركنا من جديد، عاريات، وقد غمرنا شعور بأن شيئاً قد تبدل، وأن أجسامنا قد أصبحت أخف، وأن أسراراً أقل كانت تتخفى بين التجاعيد والثنايا؛ لأن هذه تقهقرت كالأمواج العالية بعيد ارتطامها بالشاطئ متحولة إلى لمسات حب تحاكي الرمل هناك، وجاءت لحظة الاكتشاف، اكتشاف كيف كانت طفلاتي يرمقن مشيبي مخلّياً الطريق من جديد لكهرمان الطفولة الأسود، ولسواد شعري الطويل المسترسل، الذي أوقعت في حباله كل الرجال الذين رغبت بهم، اكتشاف كيف انهزمت البشرة البرتقالية أمام جبروت الحليب، وعادت لتبدو مثل تفاحة، كانت الحياة تبهجنا بعودة الزمن إلى الخلف وبالقدرة على تذكر مرابع الطفولة المفقودة، تلك الأيام التي كنا نلعب فيها على الأم وعلى الأب من دون أن يراودنا شك بأن مصيرنا كان في طريقه إلى أن يؤول إلى عزلة أجسامنا.

عند تلك اللحظة، ومن دون أن ندري، بزغت الشمس من جديد،

ونحـن متلحفـات بالكلمـات وبالـذكريات المشفوعة برغبـة التحـول إلى أحـلام في المستقبل وفي الحاضـر وفي تلك اللحظـة الـتي كـان كـل شـيء ممكنـاً فيهـا، ولـذلك لعبنـا لعبـة الطـواف (جماعـة مـن الـشبان يطوفـون علـى بيـوت النـاس لـيلاً للعـزف والغنـاء)، وثبنـا فـوق الأنـشوطة، رسمنـا بالأصـابع علـى أرضـية الفنـاء لعبـة الـصبيان «رايـولاس» خاليـة مـن الجحيم، اختبأنـا ورحنـا نعـد للألـف، للألفـين، للثلاثـة آلاف، حتـى حلّ الليل بنجومه التي باتت لَعوبـة أكثر من أي وقت مضى، وبأبراجه الـتي خلّفـت سـكون المطلـق اللامتنـاهي لنتحـول إلى هيئـات منتعشة روت لنـا أسرارها، التي انبهرت بالبريق اللبني الذي كانت تشع به أجسادنا.

عندها عادت الشمس لتشرق ولم نعد نتعرف علـى بعضنا بعضاً بعـد أن أصـبحت الأرداف مكـورة وراسـخة كمـا كانـت أول مـرة، والنـهود منتفخة بحلمات لبنية تتوعد السماء، والسيقان مخروطيـة ثابتـة تمامـاً علـى الأرض، والـشفاه محتقنـة بالـدم الأحمـر القـاني، والجبـاه والأعنـاق خاليـة مـن نـدوب الـزمن. فأصـبحت الأيـادي، إذن، خـارج الـسيطرة وانطلقت باحثـة عـن تلـك البـشرات الجديـدة، متحسـسة الحيـاة في كـل مسام في أطـراف الـشفاه، تحـت الأظـافر، في زغـب البـدن الجـزع، الـذي غطى على أسرارنا، في حبات العرق الصغيرة المتدفقة جراء الحرارة التي خرجت من أعماق أعماقنا، حـرارة ما لبث أن أصـبحت رطوبـة أيـضاً، حرارة تحولت إلى آهات وأياد رطبة، إلى ألسنة مرمرية طافت زوايا كـان الزمـان قـد أخفاهـا، مـستحمات بأسـرار رطوبتـها، وبللنـا بهـا الأصـابع النافذة من قلوب لم يبق لها خيار غير إطلاق شهقات الحب، بينما أطلت موجة الضباب الكثيف متنكرة بشتى الألـوان، وشـبكتنا جميعـاً بخيـوط الزمن العنكبوتية، وهكذا توالت نهارات وليالي لم تنقطع إلا عندما وقـف كاليكستو على الباب ولم يتمكن مـن كـبح عبـارة «يا إلهـي»، معبراً بـذلك

عن دهشته وأفهمني ما كان قد جرى مع الرجل الرمادي، مع ذلك الرجل الذي أصبح اليوم محمراً، وكان عليه أن يقود باخرة لصيد الكنوز في الجزر الجنوبية.

كنا عاريات ونلمع كالأشباح عندما حملنا إلى الصالون الرئيسي كرسي نولفا الهزاز وهي جالسة عليه ومعها الطفلة تضرب يديها الصغيرتين بعضهما بعضاً وقد أصابتها عدوى فرحتنا. تركناهما بمحاذاة البركة، وسددت نولفا دفقاتها نحو المرايا والوهج المحمر، وفي هذه الأثناء صعدنا جميعاً للبحث في خزائننا عن ملابس تتناسب مع جمالنا الأخّاذ، لكن أي منها لم يأت على مقاساتنا، لذلك هبطنا عاريات والشعور الطويلة تداعب النهود. نولفا نهضت عن الكرسي الهزاز، تاركة ثوبها يسقط عن جسدها وضمت بقوة الطفلة، التي كانت تبتسم مثلنا جميعاً. كاليكستو فتح الباب وتمكنا من رؤية صفٍ من الرجال الجوعى، رجال كأسود اشتمت رائحة شبابنا المتجدد وقدمت لألتهامنا، لم نخشهم، فأبداننا كانت مستعدة للمتعة.



فكرة البركة أعادت إلينا ليالي الغراميات المتشاركة، ليال كان الزبائن يدفعون عن طيب خاطر فيها، ليال كانت الأوراق النقدية فيها مجرد أدوات إضافية من أجل الهزات الطويلة التي كنا نسرقها من قضبانهم. لكن الصباحات باتت مملة إلى جانب البركة، التي كانت تهدد دوماً بالفيضان بفعل تنامي الدفقات بطريقة لم يعد من الممكن

السيطرة عليها، كما لو أن كل مصة تمتصها الطفلة تملأ ثديي نولفا من جديد. ولذلك قلت لطفلاتي، يوم الأحد معربة لهن عن شعور بالامتنان فيه نبرة حزن، إن حليبنا يجب أن يكون من نصيب الجميع.

ومنذ يوم الإثنين التالي، كانت كل جرعة من المشروب نقدمها مخلوطة بحليب نولفا، وكانت تستقر في قاع الأكواب وتثير في الزبائن أسئلة كنا نجيب عليها دوماً بالصيغة ذاتها: هدئ من روعك يا عزيزي، إنها وصفة البيت، التي بوسعها أن تمنحك القوة حتى لا تبدو سيئاً مع من يعتني بك.

فجأة اكتشفنا أننا لم نكن نكذب، فالقضبان باتت لا تكل ولا تمل، والزبائن صاروا أضعافاً مضاعفة، فيما جعلني نجاح الوصفة الجديدة أقرر، بعد مضي أسبوعين، خفض نسبة الكحول وزيادة نسبة الحليب، الزبائن السذج والمتشوقون، كما لم يفعلوا ذلك من قبل قط، ظلوا يعتقدون بأن حالة السكر كانت تسلب عقولهم عندما ينتصف الليل، ولم يدركوا أنني ذات يوم لم أعد أقدم لهم الكحول البتة، كل شيء كان حليباً.

المؤسف أننا لم نتمكن من إيجاد مخرج لبحور الحليب، لا بما شربه الزبائن، ولا بوصفاتنا، ولا بنهم تلك الطفلة التي نمت كالأعشاب الضارة، ولا بالبركة الطافحة دوماً. تلك البركة التي ظلت تفيض بشلالات نولفا، تلك الشلالات التي كانت الصغيرة تلاعبها كسمكة أكثر من كونها كائناً بشرياً. لم يكن مهماً كم مرة كنا نضطر لملء الدلاء، فذلك الجبل السائل كان يتهددنا بالسقوط دائماً، وبجهد جهيد كنا نتمكن من كبح جماحه من خلال البركة. القلق عشعش في صدري من جديد. «سوف أقتل ذلك المسخ الذي تركتّه أرانا لنا، سوف أغرقها في

البركة»، فكرتُ جالسة على سريري بينما تناولت قطعة من الجبن مع رشفة من الحليب، وحينها ضاعت نظرتي في غياهب الحجرة، حيث سمحت المرآة لي برؤية انعكاس قدمي على سطحها. رأيتهما كما لو أنهما كانا من زمن آخر، نظيفتين وناعمتين كثيراً إلى درجة أني تذكرت ما قد أصبح عادة في أيام البيت المتعاقبة: استحمامنا بحليب نولفا أعاد لنا الشباب. تركت قطعة الجبن وكوب الحليب على الأرض وهبطت صارخة: كاليكستو. . كاليكستو، الذي أطل برأسه من خلف البار، وسأل: ماذا يا سيدتي؟ من اليوم فصاعداً سيكون ممنوعاً استخدام المياه العادية في هذا البيت. قلت له ناظرة إلى البركة البيضاء والساكنة ككتلة عملاقة من العاج.

كاليكستو، المسكين كاليكستو يتصبب عرقاً في مواجهة تحديات الحليب بينما كان يصعد ببطء إلى السقف القرميدي متسلقاً على السلم المشغول على نحو سيئ من قطع خشبية وهو يرى من هناك نهاية المحيط الممتد في الأفق البعيد بزرقته الرصاصية والذي كلما اقترب من الميناء أكثر، أصبح أقل زرقة وأكثر رصاصية، أكثر اكتظاظاً بالمعادن والأخشاب لبواخر جريحة بصورة مميتة بفعل قوة ملح البارود، بحر يستبق خراب الميناء، ذلك الخراب الذي يبدأ عند الرصيف، حيث تنظف العجائز حراشف الأسماك الصغيرة جداً، والأطفال يتلهون برمي الحجارة إلى الماء للمراهنة على من ينتشلها أولاً، شاغلين أنفسهم على هذا النحو إلى أن تصل البواخر التجارية التي يرمي لهم البحارة منها قطعاً نقدية معدنية ويتسلون مراهنين على غرق أحد الأطفال في سبيل انتشالها.

مسكين كاليكستو، إذ يرى بين الرصيف وبيتي أسطحاً كثيرة متضررة من الزمن وتملؤها الثقوب التي تسمح في المساءات الممطرة بأن

تتسرب منها المياه التي تملأ الأطباق والصواني وتغسل الأقدام والأرجل والأيدي والأظافر والزوايا الخائرة الأخرى في هذا المرفأ. سقف بيتي لم يكن فيه أية ثقوب قط؛ لأني حرصت على الطلب من كاليكستو أن يبقى متيقظاً دائماً، حرصت على إعطاء الفرصة للزمن بأن يتقطرنا. هنا كنا نجمع ماء المطر في ثلاثة خزانات من المعدن المحروق، وحجم كل واحد منها كبير بحجم البركة. تلك المياه البرية، كان يصار إلى تدجينها لاحقاً عبر المواسير قبل أن نتركها حرة من جديد تنسال عبر الدوشات ومغاسل الأيدي وأحواض الجلي والمراحيض وأحواض الاستنجاء في البيت.

مسكين كاليكستو، الذي نظر من السقف إلى الفناء، إلى نولفا، إلى الطفلة وإلي وأنا أحرص على ألا تفيض البركة. «لا أستطيع رفع نولفا»، لابد وأن هذه الفكرة راودته حين جلس على آخر درجة من السلم وراح يحك أنفه. «كيف يمكن رفع الحليب إلى السطح؟»، لابد أنه كان يتساءل حيال ذلك بينما كان ينزل السلم، وسار حتى مخزنه- غرفة نومه، وأخرج قضيبين طويلين من الخيزران الأميركي وسيفاً قصيراً. ترك أحد القضيبين سليماً كما هو طويلاً إلى درجة يمكن أن يصل معها من البركة إلى السقف القرميدي، أما القضيب الآخر فشطره إلى ثلاثة أجزاء، اثنين متساويين والثالث أقصر. ومن ثم أحضر حطباً وأشعل النار وخرج يقول: سيدتي: أحتاج لشراء كمية من الخيش وشمع النحل. وافقت بإشارة تنمّ عن أني أسمح له بفتح الصندوق الذي كان يقبع تحت طاولة الصالون الرئيسي.

عاد بسرعة وانكب على تسخين الخيش وإذابة الشمع. بالشمع صنع قمعاً له فتحة عريضة من طرف وأخرى ضيقة من الطرف الآخر ليدخل بانتظام وبشكل متناسب في أحد قضيبي الخيزران. بعدها، أخذ

قطعة من الحديد وتركها في المجمرة حتى أصبحت حمراء متوهجة، حينئذ أدخلها في عودي الخيزران لخرم شقوقٍ طبيعية فيهما. عند تلك اللحظة، كان الخيش يغلي فاستخدمه ليجمع بشكل محكم كل القضبان وضبطها على زاوية تسعين درجة.

وفي نهاية المساء، أصبح ما بين يديه عبارة عن هيكل يبدأ من ثدي نولفا، حيث ثبت القمع الشمعي، وينتهي في خزانات السطح. لنثق بأنه سيكون هناك ما يكفي من الضغط، كان الشيء الوحيد الذي قاله بينما كان يثبت الخيزران في القمع، الذي بدأنا نرى شلال نولفا ينساب منه، حينها ركض إلى البيت وراح يسحب سلاسل المراحيض ويفتح جميع حنفيات المغاسل والمجالي وأحواض الاستنجاء (بيديهات)، فدوّى في جميع أرجاء البيت صوت شلال يحمل مياهاً شفافة جارية، بينما سيطر الفضول على طفلاتي اللواتي شاهدن بأنفسهن كيف راحت دورات المياه تقطر الواحدة تلو الأخرى سلاسل بيضاء حتى أن البورسلان الأبيض أصبح أكثر بياضاً، وحينها طلب كاليكستو من الطفلات أن يساعدنه على إغلاق الحنفيات وعاد إلى الفناء، وقال: جاهز سيدتي.



حركات نولفا صارت تشبه حركات بهلوانية، فبينما كانت تبقي الطفلة مستلقية على يدها اليمنى، كانت تسند بالأخرى عود الخيزران وتضغط على القمع ليبقى ملتصقاً بثديها. حركات الطفلة تغيرت

بدورها، فبعد أن كانت تلعب على ابتكار عوالم جديدة بحركة أصابعها، ثم ترسم تلك العوالم على جلد نولفا المكشوط، من خلال ذلك الذهاب والإياب بين السماء وثدي نولفا، انتقلت إلى التشبث بذلك النسيج الذي راح يجرحها من دون أن يسيل الدم؛ لأن الشمع شكل أرضية للندوب التي لم تكن جروحاً قط.

صنعت من الشمع قطعة من الرق، وعلى هذه استخدمت أقلامها العشر المشحوذة كالفولاذ والتي راحت تغرسها بخجل في البداية مجذوبة بفتنة جُسم يتقبل الأثر دون أن يبتعد، لكنها ما لبثت أن بدأت تبحث عن أشكال جديدة مكتشفة بذلك إمكانيات الأقواس العشر للأصابع العشر صانعة نسخاً طبق الأصل عن تلك الغيمات التي حاولت سابقاً اصطيادها في السماء.

وهكذا انتهى بها الأمر إلى ثقب القمع حتى أن دفقة رقيقة من الحليب استقرت بضربة مفاجئة في عينيها: أبيض على أبيض. ما جعلها ترغب في العواء متذكرة يوم مولدها، لكن فجأة، وكما حدث في ذلك اليوم مراراً وتكراراً، حيث كانت نولفا تسعى هناك لتهدئتها، أغلقت بإصبعها الثقب وانتظرت هادئة جداً مرور كاليكستو من هناك. نظرت إليه، وسألته: هل لديك مزيد من الشمع؟ الرجل اقترب ولاحظ الأضرار التي سببتها أصابع الطفلة، فذهب إلى المخزن- غرفة النوم وأخرج بعض الشمع وطنجرة وصنع قمعاً جديداً. القمع المتضرر بدا مغرياً لرميه في النار، لكن كاليكستو صرف النظر عن ذلك عندما أحس بيديه تلك السحب المشغولة بجروح لا تدمي خلفها ظفر على الشمع. نظر إلى الأشكال وأدار رأسه ليجد نفسه أمام جسد نولفا غائرة في كرسيها الهزاز ممسكة

بهيكل الخيزران بيد والطفلة باليد الأخرى. فلم يتمكن من الحيلولة دون أن تتشكل ابتسامة على شفتي العامل الخشنتين كأنهما مدفوعتان بنسائم البحر التي تغوي الغيوم.

منذ ذلك اليوم، راح يبدل القمع كل أسبوع، ويحتفظ في مخزنه- غرفة نومه بالتي ينزعها عن صدر نولفا، وقد حرص على تصفيتها على لوح خشبي أمام رأس الحصير الذي كان ينام عليه، وأثناء الليل، كان يعمد إلى إحاطة القموع بالشموع ويشرد متأملاً الأشكال اللامتناهية، التي كانت تحاكيه وتخبره عن أمر ما كان بوسع أحد أن يفهمه غيره هو والطفلة. وفي غضون ذلك، بدأنا نعتاد على تبذير الحليب والإسراف في استخدامه في الاستحمام صباح مساء، وقبل الخدمة وبعدها، مثلما اعتدنا على ترك الحنفيات مفتوحة طلباً لمتعة الاسترخاء الناجمة عن سماع الحليب جارياً فقط. وبينما كان كاليكستو يضيع في متاهة السحب الشمعية، نسينا نحن الفناء والكرسي الهزاز والطفلة ونولفا، نسينا دون أن نكترث للنسيان كما هو طبيعي أن يحدث، ذلك أنه إذا تذكرنا ما ينسى، فإننا لن ننساه، نسينا كما لو كنا نتعلم الحياة، نسينا الوجوه أولاً، ثم الفضاءات، وفي النهاية كل شيء، نسينا كما تُنسى الحروب والضحايا وأبناء الضحايا. نسينا بكل بساطة.

لم أتذكر الا عندما شاهدت ذات مساء، وأنا أطل من نافذة غرفتي، ستارة من الحليب حجبت الرؤية عن الشاطئ. في البداية راودني إحساس بأنه كان هناك شيء أبعد من باب المطبخ، ثم دست، في الذاكرة، الأرض الجافة التي استحمت بالحليب ذات مرة، بعدها استدعيت ذلك القرع على البركة، فظهرت نولفا والطفلة. نزلتُ ووجدت

الاثنتين مغلقتي العيون، وتزفران نفخات غيظ تكاد لا تسمع كما لو كانت تتبادلان من خلالها الحوار. ذهبت إلى المخزن- غرفة النوم باحثة عن كاليكستو، وقلت له: طفح الحليب. لا يمكن يا سيدتي، فلقد بدلت القمع أمس، قال ذلك وهو يتسلى بالسحب الشمعية. قلت له بإلحاح: ليس ممكناً فقط، بل إنه حاصل بالفعل، فقطراته تزرب من نافذتي. توجهنا إلى باب البيت وتمكنا من رؤية الدفقات تتساقط من السقف بينما كانت نولفا والطفلة تتحاوران بين الأحلام في الفناء. نظرتُ إليه ورأيت في عينيه ما كنت أعلم أنه موجود في عيني أصلاً، لكني لم أشأ التسليم به.

كانت عيوننا شرفة للدموع، صرخة كرب، مذاق حسرة، يقين من أن ما هو محتم كان يحدث بالفعل في نهاية المطاف، كانت عيوننا مرايا الأبيض، مجرد ذريعة لنتذكر أن حليب الطفلة كان يملأ بطوننا، يغسل لنا الرذائل والعيوب، يسكرنا وينومنا في الليل، وأنه فاض بنا بعد أن أردته أن يكون كذلك. حينئذ، استلقى كاليكستو على إطار الباب، وأخرج يده وقطع ستارة الحليب التي كانت أمامنا وتحجب عنا الرؤية، جمع قليلاً منه في راحة اليد ونفخ وتركه يسقط وهو غارق في التفكير.

مددت إصبعي والقماشة البيضاء انقطعت سامحة لي بأن أرى على الجانب الآخر وجهاً صغيراً جداً لأحد أولئك الأطفال الذين يطلقون عليهم هنا لقب «الأصفر النحاسي»؛ لأنهم يعيشون، على السفح الصاعد نحو السلسلة الجبلية، في منازل ارتجالية راح سكانها يسلّحونها بقطع معدنية تنزع من البواخر التي تموت في حوض السفن. أحد أولئك الأطفال، إحدى العيون الوثابة بفعل العلامات التي خلّفها الجوع، أحد

الأصابع الرفيعة للفسق الذي لا يزال يأبى الموت ويحافظ على وجوده سائراً بقوة مشيئة إلهية مبهمة، طفل أخرج لسانه الذابل عديم اللون ليبلله بدفقة حليب، طفل انتفش جلده عندما أحس بقوة الحياة، فخرج راكضاً بلا وجهة سامحاً لي برؤيته من الجانب الآخر لدفقة الحليب التي لم يقسمها إصبعي. استندتُ إلى إطار الباب تماماً مثلما فعل كاليكستو.

حينها عاد الطفل للظهور خارقاً الدفقة بكامل رأسه جامعاً رشفات كبيرة في فمه غير المعتاد على الطعام. وكان قد أحضر معه صفيحة قديمة كانوا يستخدمونها لإعادة تعبئة زيت أنثى الحوت، ملأها وشرب منها، وعاد ليملأها من جديد، واختفى راكضاً صارخاً بتلك اللغة المستعارة، التي يتكلم بها الناس على السفح. ما كنا قد تمكنا من إغلاق الباب عندما أصبحت دفقات الحليب مخترقة برأس، ثم رأسين، ثم رؤوس كثيرة لأطفال النحاس الأصفر الذين فتحوا أفواههم الصغيرة ذات الأسنان التي لم تخرج قط، أطفال قفزوا إلى الشلالات التي تشكلت من الدفقات، وراحوا يملؤون الصفائح والمزيد منها، ثم يفرون راكضين باتجاه سفح الجبل. عندما هبط الليل، لم يتمكن الزبائن من الدخول؛ لأن جلبة الصغار سبقتهم بعد أن حضروا مجرجرين أمهاتهم غير المصدقات اللواتي كن يحملن أطفالهن حديثي الولادة الذين لم يتذوقوا الحليب قط؛ لأنه من تلك الأثداء الذاوية، أثدائهن، ما كان يخرج سوى الغبار. تلك الليلة وذلك الصباح الذي تلاها كانا هادئين في البيت وطافحين في المرفأ.

الستارة التي كانت تعتصر حليباً والمتدلية من السطح القرميدي ملأت الأفواه الشاخصة أمام البيت، لكن ما تبقى من

الحليب ارتحل مبللاً الأرض بين البيوت وصولاً إلى الشاطئ الذي راح يقفز فيه من رصيف إلى آخر حتى اختلط بملح البحر مستدعياً أسماكاً كثيرة فتحت أفواهها كي تشرب لأول مرة ماء الحياة. وفي الصباح التالي، حال المهرجان الشعبي أمام البيت دون وصول الحليب إلى البحر حين كنا أنا وكاليكستو نتفرج على المشهد من النافذة. ماذا نفعل يا سيدتي كي نتمكن من فتح الحانة هذه الليلة؟ أمر ما سيحصل لنا.



# 2

ليوديغاريو دلف وفي عينيه نظرة فارغة لشخص لا يريد التعرف على أحد، متقدماً بخطوات قصيرة تتناسب مع ساقيه القصيرتين اللتين كانتا قد أُعطيتا منذ أن رأى النور أول مرة في أعالي السلسلة الجبلية، هناك حيث يسقط عند الشروق وعند المغيب ظل المشاة على طبقة الضباب الكثيف الملازم للأرض الذي يحيط بهم موحياً بإحساس أن أشباح الأموات المنسيين تطوف بالمكان. ولد على الرغم من أن أمه فعلت كل ما في وسعها كي لا يكون لها طفل، بدءاً من الامتناع عن فتح الساقين أمام اندفاعات الزوج الهائج. وكما هو طبيعي في أخلاقيات رجال الجبل، الذين يتربّون، من الناحية العاطفية، على فجور الوعول، لم يتمكن الرجل من تحمّل الضغط الذي راح يتنامى بين الفخذين، لكنها استغلت فرصة متعللة بأن تلك الليلة كانت الأولى، فنامت باكراً، لكنه ثبتها ووجهها إلى أسفل مستعيناً بكيلوغراماته المئة والخمسين المتعرجة. العملية لم تدم طويلاً، فلم تتجاوز مدة دقيقتين فقط، بيد أنها كانت كافية ليحس كقطعان الماعز الذكور بعد السفاد، ملوك الجبل الذين تصبو انتصاراتهم إلى الغيوم العابرة كي يعلم الجميع وفي جميع الأرجاء، بأن قرون الثور انتصرت على منافسيها وعلى صرامة إناثهم.

وعندما تنبهت هي إلى أن دماء حيضها لم تصل، خائفة من أن

الاغتصاب والقوة كانا قد تحوّلا إلى لحم، حقنت نفسها بين الفخذين بذلك الخليط الفتاك من الليمون وماء القلي، الذي كان استخدامه شائعاً بين بائعات الهوى الغافلات اللواتي كن يحملن في الميناء. لكن جميع محاولاتها باءت بالفشل، فالبذرة انتهى بها المطاف إلى أن أصبح لها ذراعان ويدان وأظافر مكثت في أحشائها، الساقان التويا فحسب، الأمر الذي يعد من أبسط الشرور إذا كانت المسألة تتعلق بالظفر بالحياة. يوم الولادة، شهد آخر محاولة لقتل الطفل، الذي أنجبته جالسة القرفصاء في العنبر تاركة المولود يسقط على الأرضية الترابية، ثم قصت الحبل السري بقضمة من أسنانها، وخرجت ساحبة خلفها المشيمة على أمل أن يفعل النهم اللاواعي للدجاجات ما فعلته بها بقية من أخلاق مسيحية شرّبتها إياها جدتها بمساعدة السياط. لكن الدجاجات كان لهن تقدير آخر، فاحترمن الطبيعة، ربما لأن خليط الدم والمشيمة كان مجبولاً بالخراء، وبما أن الدجاجات لسن عبقريات كما يظن، فلقد امتثلن لسنة الحياة الطبيعية، التي تقول: إن ما يخرج من الجسم لا يؤكل من جديد.

الطفل ظل يبكي، إذن، حتى عادت، مع هبوط الليل، الكيلوغرامات المئة والخمسين من روتينها اليومي ولبت النداء، فضمه الأب إلى صدره متجاهلاً النتانة وسار نحو البيت وسحب امرأته من شعرها، ضارباً رأسها بجدار الكوخ في الوقت الذي كان يصرخ بوجهها قائلاً: ملعونة الساعة التي أشفقت فيها على توسلاتك وأخرجتك من ذلك الكوخ الذي كانت القيّمات على بيت الدعارة يقتلنك فيه جوعاً، اللعنة على تلك الساعة التي اعتقدتك فيها تستحقين إنجاب ابني البكر، حياتك الآن تتوقف على هذا الطفل، إن مات هو، سأشطر رأسك بسيفي القصير هذا.

دخل ليوديغاريو متحاشياً عيني نينوسكا، بائعة الهوى الرقيقة التي احتضنته في حجرتها. عندما كان طفلاً وصل إلى الميناء قوامه الجلد والعظم شارداً من البيت الذي توقفت فيه أمه عن تقديم الطعام له في اليوم الذي رأى فيه رجل الكيلوغرامات المئة والخمسين آخر بقرة تموت، وتعين عليه مخالفة طبيعته الجبلية ليبحث عن الحظ في عنابر البواخر التجارية.

نينوسكا وجدته عند بوابة السوق نائماً تحت أشعة منتصف نهار الميناء التي لا ترحم وفمه مغطى بطبقة سميكة من المخاط الأبيض العجيني، فقلّب نينوسكا الرقيق لم يستطع تحمل المشهد، تضايقتْ، انقبضتْ مختبرة، في أعماقها، ذلك الجوهر وهو يتفجر رأفة وحناناً. رفعته بحرص خشية أن تنكسر ذراعه وجلبته معها إلى البيت، حيث نام نوماً عميقاً طوال ليلتين متتاليتين على سرير نينوسكا، ليلتان لم تخرج خلالهما من الغرفة إلا لكي ترجوني ألا أرميه في الشارع، ولكي تتمنى عليَّ أن أتركها تتقاسم طعامها مع الطفل المحتضر، ليلتان قبلتُ خلالهما شروطها، سامحة لها بالاختباء من الزبائن الذين كانوا يسعون وراءها.

في الليلة الثالثة، وبينما كانت نائمة إلى جانبه، استيقظ الطفل وأحس من جديد بولادة جسده، ومن خلال اليدين اللتين لم تتوقفا عن ملاطفته، أحس باستيقاظ جينات الوعل الذكر فيه، فركبها وهي تركته يتحرك بغير كثير حساب حتى بلل المخاط الأبيض الفاتر إليتها. الشيء الوحيد الذي قالته نينوسكا مداعبة رأسه: أيها الطفل المضطرب، لقد أزفت ساعة النوم. في الصباح، لم يكن الطفل هناك، اختفى، ونزلت هي لتناول طعام الإفطار. سوف يرجع، قالت لي ذلك بشفتين باسمتين.

وهذا ما حدث بالطبع، فالولد، الذي يسيل المخاط من أنفه، دأب على العودة كل أسبوع وعلى الدخول إلى غرفتها، كان يأكل مجاناً، لم يدفع قط، وكان يخرج متخفياً تحت تنورتها. لن أقبل بالمزيد، قلت لها ذات مساء بينما كانت تزين نفسها لاستقباله مرة أخرى.

سيدتي، افهميني، إنه طفل ضائع. ومع مرور الوقت وكسائر الذين أصبحوا زبائن عاديين في بيتي، وعد هو بأن يأخذها وقال لها: إنه عندما يمتلك المال، سنذهب إلى منزل سأشتريه لك على قمة الصخرة، التي تُشاهد منها النوارس والأمسيات محلقة في السماء. ونينوسكا صدّقته وتوقفت عن استقبال الزبائن متذرعة دائماً بالكلمات نفسها: لا أستطيع الآن؛ لأنه سيأتي صديق وعدته بأن يكون الأول. لكن سرعان ما أصبحت أيام الانتظار أكثر من الزيارات، أيام بقيت خلالها تنظر إلى تمايلات الباب حتى يغلقه كاليكستو، وظلت تصعد إلى غرفتها كل يوم لتعود إلى النزول في الليلة التالية بالحماس نفسه، أما هو، فكان يعود بصورة متقطعة، وكانت في كل مرة ترمي نفسها بين ذراعيه معاتبة إياه على الغياب بعضه من العنق وترك كدمات عليه.

لم يصب هو إلا بأمر واحد حين قال لها: لا تمثلي عليَّ مسرحيات، فأنا أعمل من أجل الاثنين، وعندما أتوقف عن المجيء لرؤيتك، فذلك لأنه يتعين عليَّ حضور الاجتماعات التي ينظمها الحزب. ومع مرور الأيام، التي باتت أسابيع وشهور، أصبحت صورة ذلك الرجل القصير تدريجياً أكثر ثباتاً وسكوناً وأقل تعبيراً، أصبحت أشبه بتلك الصور التي يظهر فيها في الصحف، وأقرب إلى شبح من الورق والحبر لشخص يتحدث عنه الجميع ويتفاءلون به بوصفه سياسي المستقبل الواعد. وبالفعل، فلم يتأخر كثيراً في تأكيد صحة تلك التكهنات، ودليل

ذلك تمثل في أن سائر أعضاء الحزب ساندوه بمبادرة لقاء العمدة ساتورنيانو من أجل أن يقدم كشف حساب على ضوء حالة الفقر التي كان يواجهها المرفأ.

السيد ساتورنيانو الخائف من أن يرفع الحزب الدعم عنه، حضر مع سائر أعضاء مجلس بلديته، الذين قدّموا دفاعاتهم عن السياسات المعتمدة، وبرّروا النفقات، واستعرضوا المشاريع، بكلمة واحدة، كذبوا بإسهاب وبوقاحة مثلما كانوا يفعلون في تلك الاجتماعات دائماً. أما ليوديغاريو، فلقد انتظر السيد ساتورنيانو حتى ينهي كلامه ليطلب من جميع الحضور أن يتركاهما بمفردهما. أغلق الباب خلف أنصار كليهما، وبينما كانت عيناه تطلان على الكتف الأيسر، اصطاد النظرة الشماء لمن كان قد أصبح على علم بمصيره.

أزفت ساعتكَ، قال ذلك ليوديغاريو بصوت مشفوع برغباته الدفينة، هكذا أتت ساعة خَلَفه وساعة الذي سبقه وكل الذين حصلوا على فرصة للحكم. أخرج من سترته قلم حبر وغرسه في ظهر دون ساتورنيانو، الذي تذكر اليوم الذي اجتمع بخلفه وهمس في أذنه: لا تقلق يا سيدي، فالمدينة ستبقى في أياد أمينة. ساتورنيانو لم يتمكن من المضي في تضرعه الأخير عندما أحس بريشة القلم العطشى تندفن في وريده الوداجي. قطرة واحدة لم تلطخ الأرضية؛ لأنه عندما امتلأ القلم، نادى ليوديغاريو على أنصاره بثغاء الفحل الذكر الذي ورثه عن والده، وملؤوا أقلامهم أيضاً. وعندما انتهوا، سأل العمدة الجديد أعضاء المجلس، الذين لم يكونوا قد هربوا بعد وكانوا راغبين بالمشاركة في صنع مستقبل استهل مسيرته في ذلك اليوم، وهكذا لم يبق قطرة دم واحدة في جسم السيد ساتورنيانو. بعد جمع الأنصار القدامى بنظرائهم الجدد

لكي يوقّعوا بحبر أقلامهم الأحمر على الكتاب الضخم لمحاضر العمد، الذين كانوا قد نصَّبوا أنفسهم، على مر أجيال كثيرة كالأصابع في أيدي الحاضر، عمداً آخرين على أنقاض دم أسلافهم.

ليوديغاريو، عمدتنا، ذلك الرجل القصير بساقيه الملتويتين والمتلفح بالنسيم الأحمر للسلسلة الجبلية، اصطدم بنظرة نينوسكا الجزعة، وفي بداية الأمر، لم يتعرف عليها؛ لأنه كان يترقب أن يجدها بوجه لطخته علامات الزمن، وليس ثابتاً ومتجدداً كما أحالنا حليب نولفا. لكنه سرعان ما تذكر تلك الليالي الخفية في الحجرة وعيناه صعدتا إلى عيني من كانت تنظر إليه، لكن روح الكاذب الطيب فيه دفعته إلى البحث عن ملاذ في كلماتي حين قلت: أهلاً وسهلاً، وأنا أقدم له أحد أكوابنا المرمرية. جال في الصالون بنظرة متكبرة لشخص يعود لزيارة أملاكه بعد المهجر، توقف أمام البركة، بينما طغى فضول الأبيض على الأحمر في نظرته. انتهزتُ الفرصة للاقتراب منه بهدوء حتى أصبحتُ خلف ظهره تماماً إلى درجة أنه كان بوسع شفتيّ أن تعضّا عنقه، وهمست في أذنه بالكلمات التي أرادت أن تدوي بصرخة كظمتها نينوسكا في الحنجرة: كيف تفعلها ولا تأتي لزيارتنا منذ زمن طويل، ألم تعد تعرف ليالينا؟ كيف حالها؟ سأل ملتفتاً لرؤيتي ليكتشف خلف جفني عيني نينوسكا الدامعتين.

أوضحت له أني أضع على البار جرة يترك الزبائن فيها مكتوباً على الأوراق النقدية اسم الطفلات اللواتي يريدون مشاهدتهن وهن يتقاتلن بحيث تتواجه من تحظى بأصوات أكثر مع من جمعت مبالغ مالية أكبر، وعندما ينتهي القتال، تجمع المنتصرة أكواب الحاضرين وتبدأ بملئها بالحليب الذي تصارعتا فيه. سار ليوديغاريو عائداً إلى

البار، ترك كوبه، استرق النظر حوله متفحصاً أرجاء المكان ليتأكد من كونها قريبة،

أخرج من جيبه محفظة منتفخة وكتب بخطه القروي «نينوسكا» على خمسين ورقة نقدية. من أجل أن يجيء دورك وتقاتلين بمفردكِ، قال هذه الكلمات التي خرجت من بين أسنانه متصنعاً هيئة الشخص الذي لم يكن قد تعرف عليها بعد، فحاولت هي الاقتراب لمعانقته، لكنه تفادى يديها باعتذار حاذق قائلاً: هل أعرفك يا آنستي؟ الأمر الذي تركها متجمدة بينما ارتسمت على محياها تكشيرة تنمّ عن ألم واحتقار للواقع.

عاد لينظر إليّ وسأل: هل أستطيع الآن، سيدتي، معرفة لماذا استدعيتني؟ دنوت منه، وأمسكتُ بيده مثلما كنت أفعل مع الأشخاص الكريهين الذين اعتقدت أنهم مرشحون لسرقة قلوبهم منهم، وسحبته منوماً مغناطيسياً تحت تأثير مداعبات أصابعي الطفيفة لباطن يده إلى الفناء، حيث كانت نولفا تغني أغنية مهد يدبر فيها ذئاب ولصوص وساحرات الفخاخ والمصايد ضد ملوك وأمراء، بينما كانت الصغيرة الغارقة في أحلامها ترضع فرحة على إيقاع الأغنية. كاليكستو، الذي راح يقرأ إيماءات عينيّ، فصل الثدي المتصل بالقمع وترك دفقات الحليب تملأ الدلو، ثم عاد لوصل القمع، وبالحليب الذي جمعه سقى النباتات، التي ما إن تحسست الفتور الأبيض حتى أطلقت العنان لبراعمها لكي تصبح وروداً. فقلت له: هنا لديكَ السبب الذي يقف خلف الألوان الجديدة في حدائق المرفأ. ذلك أنه في ظل طفحان الخزانات ومع الدفقات التي تغذي العائلات النحاسية الصفراء، خيم على تراب الميناء حالة من صفاء الألوان التي تحولت،

أولاً، إلى ورود، ثم إلى فراشات، وبعدها إلى أنواع كثيرة من الطيور المغردة، وفي نهاية المطاف، عندما اشتدت حرارة الشمس وراحت تلفح وجوه الناس، إلى قوس قزح بتدرجات ألوان الجاتوه. في تلك اللحظة، قررت استدعاء العمدة؛ لأنه كان قد أصبح واضحاً في ذهني مصير حليبنا.

بعد مضي ستة أشهر، دخل كاليكستو إلى غرفتي قائلاً: سيدتي، التقطت للتو هذه البطاقة من على الباب، إنها لكِ:

سيدتي العزيزة جداً

يسعدني إبلاغك بأن أعمال أنبوب الحليب الجديد قد بلغت نهايتها السعيدة. ولم يبق سوى تفصيلين صغيرين اثنين. الأول هو أن تتعاوني حضرتكِ في إحضار السيدة نولفا إلى الخزان- السد الذي شيد خَلف منزلكِ. الثاني هو أن تتفضلي بمرافقتنا أثناء الاحتفال الرسمي الذي سيقام على رصيف الميناء.

على أمل رؤيتكِ قريباً، يودعكِ من سيكون لكِ إلى الأبد.

ليوديغاريو

مجامل، هممت بالكلام، ماذا تقولين يا سيدتي؟ أقول: إن الساعة قد أزفت يا كاليكستو. نزلنا إلى الفناء ووجدنا نيكنا تجدّل شعر نولفا الطويل، ونولفا، بدورها، تصنع وتفك دمى من جعدات الطفلة البدائية. عري الثلاثة فتّرته أشعة شمس الصباح. سألت نولفا: هل لديكِ ما

يكفي للميناء؟ لدي ما يكفي للبشرية جمعاء، أجابت وهي تبدل الثدي للصغيرة. تعاونا نحن الثلاثة على حمل نولفا وكرسيها الهزاز إلى الخزان الكبير الذي كان العمدة قد شيده على أنقاض ما كانت يوماً ما منازل جيراننا. سددت ثدييها نحو ذلك الفراغ العملاق الذي سرعان ما رحنا نشرب منه جميعاً وعادت نولفا لتلعب بشعر الطفلة الهادئة، بينما واصلت نيكنا جدل شعرها.

أنا وكاليكستو فهمنا الأمر، فبدأ يعد الطاولات لليل، وأنا صعدت إلى غرفتي مع قناعة تامة بأني ما كنت لأحضر ذلك الافتتاح الملوث بنظرات خبيثة ستتجنبني لكي لا أشي بقاذوراتهم التي كنت أعرفها جيداً والتي كانوا يمارسونها مع طفلاتي عندما يزورهن. لن أغادر مملكتي، مملكة الحقائق الساكنة بين السيقان للذهاب لزيارة مملكة الأكاذيب المموهة خلف الابتسامات.

بعد مضي يومين، أيقظني ظل كاليكستو واقفاً بمحاذاة سريري. قال: سيدتي، جاؤوا ليتركوا لكِ هذا، بينما كان يمد نحوي علبة مغلفة بالمخمل الأحمر، فلقد منحني المجلس البلدي «صليب الأرجوان» تكريماً لخدماتي. لم أشأ أن أسأل نفسي ما إذا كانوا قد فعلوا ذلك لاعتبارات تتعلق بسنواتي كقيّمة على بيت الدعارة، أو لاعتبارات تتعلق بالطريقة المغايرة لاستغلال نولفا وحليبها. على أية حال، نزلت إلى الفناء، وعلقت الميدالية على عنق المرأة العجوز، فأخذتها الصغيرة بيديها الاثنتين، وراحت تلعبت بعرض انعكاساتها في العيون.

❖ ❖ ❖

ومثلما حصل في بيتنا تماماً، بدأ البياض يعم الميناء. بيض أصبحت مغاسل الأيدي، وأكثر بياضاً، باتت مجارير الصرف الصحي التي كانت تصب في البحر، بيضاء صارت النوافير في ساحات وميادين السوق، التي باتت، بفعل صفاء الجو اللبني، تستخدم من قبل المتنزهين لإنعاش العنق والوجه، بيضاء جاءت الأمطار؛ لأن الشمس أحبت حليب نولفا، وحينها أصبحت الأنهار بيضاء أيضاً، وكذلك البحيرات والبرك والمستنقعات والندى بقطيراته الصغيرة التي راحت الشمس ترفعها بحرارتها نحو السماء، لذلك لاقت الغيوم البيضاء المصير الأبيض ذاته وأكثر، ولم يعد أي طفل يسأل أمه: لماذا الغيمات بيضاء إذا كانت المياه بلا لون يا أمي؟

البياض جلب معه حقبة المتسولين المتكبرين، الفخورين بجلودهم وملامسهم المغسولة بالحليب، وكذلك أسنانهم المعززة بفوائد وعطايا زخات المطر، جلب معه زمن اللصوص الكسالى لا لشيء، إلا لأنه كان يكفيهم هز أي شجرة وتلقي القطرات الطافحة على أوراقها لملء بطونهم والشعور بالنعس، جلب الحياة لنساء عجائز بلا أخاديد في الوجه انتصبن ليُغوين الصبيان تاركات خلف الأبواب الداخلية شباكاً نسجنها وأعدن نسجها ذات مرة لأحفادهن، صيادو الفجر.

حل طقس أمهات عاودن الانشغال بأبناء كانوا منسيين في الشارع، مملكة أطفال حيويين ومتشوقين صاروا يخرجون من بيوتهم في الصباحات الباكرة للحصول على مكان جيد في صالون المدرسة، حيث كانوا ينتظرون المعلمات المزينات اللواتي عاودن ووجدن أنوثة سكبتهن من جديد بين كتب النصوص ليعدن إلى الإفراط في الكعوب العالية، ورفع ثنيات تنوراتهن وتبطين سيقانهن بالحرير.

صار مرفأ في حالة نعمة، على أهبة الاستعداد لصد أي هجوم من الواقع الذي يتجاسر على مهاجمته. هذا الوضع أدخل الحماس إلى قلب العمدة ودفعه إلى الشروع في مأثرته السياسية الجديدة: الجلوس على كرسي الرئاسة. بدأ بالدعوة إلى عقد اجتماع عام في القصر البلدي حضره الجميع، سواء أنصاره، الذين أصبحت أعدادهم بالآلاف، أو معارضيه، الذين ما كانوا قد انتهوا بعد من مسألة تصديق المعجزة اللبنية، على الرغم من أنهم كانوا يعدون في جميع صباحاتهم طعام الإفطار من الحليب الذي كانوا يحلبونه من الحنفيات.

كان الصالون الذي اجتمعوا فيه كبيراً، لكن العمدة الجديد لم يره على هذا النحو؛ لأن الأنصار استولوا على المنازل حتى انتهوا من عصر كل الستائر البيضاء لتحويلها إلى رايات لامتناهية ماجت مع نسائم المساء حين صعد العمدة منصته، حيث أجلسوا المعارضين في الصف الأول متبعين القاعدة التي تقول: إن حشر الأعداء على مقربة أفضل من رؤيتهم يهجمون من بعيد.

كلمات قليلة لأحداث كبيرة، قال ليوديغاريو عندما تحولت الأصوات إلى همهمة، والهمهمة إلى صمت، حينها خاطب الجموع وقال: ليس لدي سوى القليل من الكلام لأقوله لكم، إنها مجرد دعوة، لنوحد قوانا المنبعثة من جديد للسير إلى العاصمة، على أن ترتحل على أكتافنا المزاود الطافحة بالحليب الذي نشربه كلما التقينا، وعلى أن ترعب سيقاننا أفاريز السلسلة الجبلية، وعلى أن نصل إلى قصر العاصمة لإعطاء الرئيس ما يشربه من سر حياتنا. هتاف الجموع انفجر متخفياً في عبارة: «يحيا العمدة»، وأصابت عدوى الهتاف جموع المعارضين، الذين عبروا منصة الاجتماع مدفوعين بالخناجر المتحمسة لحرس ليوديغاريو الشخصي.

القافلة انطلقت بعد مضي أسبوع على ذلك الاجتماع بعد أن ملأت مجاميع الرجال سائر الدكاكين المنتشرة في المرفأ، فكان كل شيء صامتاً في الشوارع الخالية وفي البيوت الخالية من الأصوات، صمت سرعان ما ظهر على وجوه الأطفال وهم يطلون من الأبواب، صمت أمهات رحن يراقبن صغارهن بحذر، صمت حشود كانت تتجسس عليهن من الزوايا، صمت حشود لم تغادر، لأنها عندما لم تتمكن من الحمل، دعاهم ليوديغاريو للبقاء لحراسة الميناء، صمت سرعان ما تحول إلى خطوات تبحث مع من تتحدث، خطوات راحت تقترب رويداً رويداً إلى أن وصلت إلى قرع بابي تحدوها حماسة مدفوعة بالفضول الذي أثاره بيت بلا جيران محاطاً ببحيرة بيضاء. كاليكستو فتح وهو في حالة سبات أدخلتنا فيها تلك الأيام الطويلة الخالية من الرجال. هل نستطيع الدخول؟ سأل شخص قوي البنية ينقصه الذراع الأيمن. نظر كاليكستو إليّ من فوق كتفه ورأيت في عينيه السؤال الذي حتى أنا لم أعرف كيف أرد عليه. تفضلوا، أطلقت زفرة تنم عن ضجر متراكم. عقيرتي، التي لم تَرْقَ إلى مستوى الصوت، بلغت أسماع الحشود وكذلك أسماع الأمهات، وكان احتفال شارك فيه حتى الأطفال، فصعد صوتي درجات السلم وحفز طفلاتي النائمات مجبرات بفعل الملل بأحلامهن الخالدة في أسرة كانت قد نسيت الأنين، فاجتمعنا جميعاً في الصالون الرئيسي وولدت حياة لم نتعرف عليها، حياة سخنت بفعل ما أطلقت عليه الحشود «حرارة المنزل».

❖ ❖ ❖

في غضون اثني عشر يوماً، توجت البغلة البيضاء قمة الهرم. وليوديغاريو ترجل ونظر من هناك نحو المكان الذي كان يجب أن يكون الميناء فيه. لم يجد الأمواج الرصاصية، ولا البحيرة البيضاء، ولم يكن هناك سوى بحر لامتناهٍ من غيوم بطيئة تحاكي خطوة أنصاره راحت تصعد حتى بلغته. حينئذ أحسَّ بثغاء ينتفخ في صدره، ثغاء ما يسمى بثغاء الجبل، لم يحاول حتى إجبار نفسه للسيطرة عليه، فتركه يخرج وطال حتى أعاده الصدى في طريق العودة ليعود ليطلق ثغاء آخر، وهذا الأخير لم يرجع وحيداً، جاء مع صدى لم يولد في صوت ليوديغاريو، كان ثغاء كشف النقاب عن الكيلوغرامات المئة والخمسين المحتضرة في نجمة تائهة.

استريحوا هنا، أمر مساعده الذي لوح للرجال المشدودين إلى كرارين الحليب. امتطى البغلة، وثغا من جديد وقبل أن يصله رجع الصدى، سمع الإجابة التي كان ينتظرها، فأصبح متيقناً من الطريق نحو التلة المقابلة. حث البغلة على السير حتى كادت رئتاها تنفجران، وفجأة ترجَّل أمام البيت الصغير الحقير الذي كان قد أعاد تشكيله في ذكريات الطفولة.

دخل بينما كان والده يجأر متأسفاً على «ابن» ضاع في الضباب الكثيف الملاصق للأرض. تكور إلى جانبه ومن الرائحة تذكر الليالي التي أمضياها متعانقين بعد أن يكون الأب قد تحرز من الوحوش الضارية، ليال لم يتكلما فيها لأنهما كانا قد تعلما أن يتبادلا مشاعر الحب بحرارة جسديهما، بينما تركا - باتفاق ضمني مشترك - الأم تتجمد في العنبر. أبي، قال ليوديغاريو متذكراً الليلة التي رآه يبكي فيها على الأغنام الميتة التي دفعته إلى الرحيل عن الجبل، تلك الليلة التي ذهبت الكيلوغرامات

المئة والخمسين إلى العنبر قبل الدخول إلى البيت لتنفيذ التهديد الذي أطلقه في اليوم الذي ولد فيه ليوديغاريو، الليلة التي سمع والده يقول له: فيها نم اليوم لأنك ستشعر بالبرد غداً، تلك الليلة التي سبقت الفجر الذي وقف الأب فيه على قمة الهرم وتمكن من رؤية أضواء البواخر الراسية في المرفأ، تلك الليلة التي اقتنعت الأم فيها بأنه في ذلك البيت لن تأكل سوى الدجاجات، وهو سبب كاف لترك الطفل، الذي تمكن بجهد جهيد مصحوب بالآلام من المشي على رجليه الملتويتين هائماً على وجهه مشرداً، متخيلة رجل الكيلوغرامات المئة والخمسين يغلي في القدور أو مشطوراً من المنتصف في مشاجرة بين البحارة.

وجع الرجلين أجبر ليوديغاريو على الانضمام إلى الركب، فمن ذلك الارتفاع القصير، بدا الباب كبيراً تماماً مثل ذلك الصباح الذي توسل فيه، مرتجفاً من الجوع والبرد، قطعة من الدجاجة التي كانت تطبخها أمه ليتلقى تلك العبارة القاسية الخالية من الشعور بالألم: «لا شيء من الطعام للوحوش»، التي دفعته إلى أن يجرجر نفسه باتجاه القمة، متعقباً ربما بقايا رائحة والده وترك نفسه يتدحرج حتى السفح، حيث بدأ يعوم مع التيار عبر شوارع الميناء طارحاً في كل خطوة قواه التي نضبت بعد أن تركه أمام السوق. عدتَ على وجه السرعة، لكنكَ كنتَ قد رحلتَ، قال صاحب الكيلوغرامات المئة والخمسين مستعيداً قواه لمحاولة الوصول إليكَ. هي قالت: إنك هربت للبحث عني، فحبستها في العنبر.

ليوديغاريو بحث عن السيف الصغير الذي رافق والده دائماً. وقال: سوف أصير أكبر رجل في البلاد، بينما كان يسحب السيف من جرابه ويسير باتجاه العنبر تاركاً خلفه رجل الكيلوغرامات المئة

والخمسين ميتاً. صرخة المرأة سُمعت في سائر أرجاء السلسلة الجبلية، بعد أن فتح ليوديغاريو معدتها بحد السيف وترك فمه المتصلب، الذي يشبه فم أحد العيان، يسترخي كاشفاً عن ابتسامة بينما كان يراها تنزف دماً، تلذذ بنقر الدجاجات لمصارينها المبعثرة هنا وهناك. حينئذ فقط أعاد السيف القصير إلى جرابه وربطه في حزامه وسار حتى البغلة وركب.

وعندما وصل إلى الحد الجبلي، كان أنصاره في انتظاره وهم يشربون الحليب بأوانٍ مشغولة من ثمار الأشجار. وصرخ قائلاً: رأيت أمي وأبي يموتان، ومن دون من أدين لهما بالحياة أتحول إلى إله. فرفع جميع رجال القافلة أوانيهم الخشبية وهتفوا لبصيرة من ملأ بطونهم بالوعود.

خمسة أيام مضت قبل أن تتمكن القافلة من عبور القمم الثلجية وتبدأ بالهبوط إلى السهوب الفسيحة، حيث كانت عقود من زمن العنف قد استنزفت المياه كلها تقريباً من كثرة استعمالها في غسل الدماء التي لطخت الجدران والأرضيات أينما كان. لذلك، فإن أول ما هدر به ليوديغاريو في كل قرية توقفت فيها قافلته كان: املؤوا الأواني المصنوعة من ثمار الأشجار بالخراء، ذلك أن هؤلاء المساكين الفقراء يجب ترطيب حناجرهم من جديد حتى يتمكنوا من الصراخ معنا. جاء يوم وصل حجم القافلة فيه إلى درجة أنه لم يبق أمام المساعد من خيار سوى الالتصاق بأذن العمدة والقول له: سيدي. إن كميات الحليب بدأت بالنضوب والكروش لا تزال تشرب كما لو كانت لانهائية. اتركني وحدي، وسنرى ما الذي يمكن فعله حيال ذلك.

لكن على الرغم من نبرة اليقين التي تحدث بها، إلا أن أفكاره

تشابكت مع علامة استفهام هائلة حول الفارق بين التأمل جالساً على كرسي بدون مسند تحت سقف منزل وبين القيام بذلك ممتطياً صهوة دابة، مستنتجاً أن الفارق الوحيد بين الحالتين يكمن في الضربات الموجعة التي كان يوجهها للدابة، فاهتزت على حين غرة القريحة الغافية تحت وطأة النهارات المشمسة عديمة الهواء.

وصل إلى بادية ينساب فيها جدول مياهه راكدة، فخلع فردتي جزمته وأغرق قدميه في مياه كريستالية كثيراً إلى درجة أنه لم يكن في وسعه إلا أن يمقتها، فاستلقى مغطياً وجهه بمعطف صوفي لدرء لذعات البعوض، وسرعان ما نوَّم السبات خليط الأسئلة والتطلعات التي هزت رأسه من الداخل. أيقظته ضربة أحدثتها قطرة سميكة اصطدمت بجبهته، فكشف عن وجهه بينما دخلت قطرة أخرى بين شفتيه. عاد إلى المخيم حين كان الجميع يتلقون زخات المطر الغزير بأفواههم والمزاود مفتوحة، وعندما رأوه ممتطياً بغلته البيضاء ومستحماً بحليب نولفا، أحبوه كالراعي الذي يغذي قطيعه بلا انقطاع.

كان الرئيس غارقاً في النوم أثناء قيلولته الثالثة حين أيقظته الخطوات الجزعة لكاتبه مستبقة الصوت المخنوق الذي قال له: سيدي الرئيس، جمع من الناس يتقدمون نحو القصر رافعين رايات بيضاء وينشدون تكهنات تنبؤ بحالة من الازدهار. أمن أجل هذه توقظني؟ ليتكفل الجنرال غونغورا بالأمر، أما أنا، فاتركني أخلد للنوم. هل أستدعي الجنرال رغم أن الرايات بيضاء؟ لا فرق، تعلم أن أي حجر في مسيرات السلام يمكن أن يكون بداية حرب، ومن الأفضل أن يكون المرء هو من يرمي الحجر الأول، قال الرئيس ذلك وهو غارق في شراشفه الحريرية. نزل الكاتب إلى الإصطبلات، التي كان الجنرال يمضي فيها

مساءاته وهو يلعب لعبة النرد مع العساكر ويروي مآثره، التي لم يعد يصدقها أحد، والتي تتحدث عن زير نساء أسطوري.

سيدي الجنرال، يأمركم السيد الرئيس بالخروج؛ لأن جمع من الناس يتقدمون باتجاه القصر رافعين رايات بيضاء. نهض الجنرال، وأطلق أصابعه في كل الاتجاهات وبينما كان يضغط بيده على قضيبه، قال بصوته الذي أرعب جيوشاً ذات يوم: أخرج لا أخرج إلا إذا خرج هو؛ لأنه إذا لم يكن يتمتع بما يكفي من الرجولة، فليتنازل لي عن عمله، ذلك أنه لدي ما أردّ به. عندما عاد الكاتب ودخل الغرفة مرة أخرى، كان الرئيس نائماً من جديد وكان يعطي أوامر مبهمة لرعايا متخيلين. سيدي الرئيس، قال ذلك قاصداً أن يخترق صوته أحلام الرئيس، الجنرال سيخرج لكنه يطلب مرافقتكم. بلاد خراء لا يسمحون بالنوم فيها، سبَّ الرئيس نافضاً الشراشف عن جسمه.

الجنرال يعرف كيف يدير قواته، فهو لا يتفاخر سدى بالندوب المئتين وثلاثة عشر التي حصدها في جبهات المعارك مع جنود مردة دأب الجيش على وضعهم في الصف الأول للهجوم، وهكذا، وبدون أن يجهد نفسه ويغطي بيده الثلاثي من ستة الذي جعله يفوز، قال: استدع لي الرائد سالوستيانو. الكاتب، الذي مارس الحرفة بدون مؤهلات وذهب للبحث عن الرائد، دخل نشيطاً إلى المكتب، الذي كان في واقع الأمر عبارة عن إصطبل وضعوا فيه طاولة وكرسي حتى يتمكن الرائد من فعل أكثر شيء كان يروق له في الحياة: الاستلقاء على الكرسي ووضع الأرجل على الطاولة.

ما الذي تنظر إليه أيها الجندي؟ سأل سالوستيانو متمرجحاً في كرسيه متأملاً فردتي جزمته التي انتهى من تلميعهما للتو. لإبلاغكم

بأن الجنرال غونغورا يحتاجكم. عند الوصول إلى مكان الجنرال، تجاهل سائر التحيات التي يتطلبها البروتوكول العسكري. وما إن جلس وطلب صندوق لعبة النرد مع الزهرين حتى سأل: لماذا أنا طيب إلى هذا الحد؟ الجاهل الحقير يريدنا أن نخرج؛ لأن أقاويل تتحدث عن أشخاص لست أدري من هم ويحملون معهم لست أدري أية أشياء بيضاء، وأن ننظم له القوات في الساحة على أن تتموضع الفرقة رقم أربع وأربعين أمام القصر، ونصف الواحد وعشرين أمام الكاتدرائية، والبقية تتمركز في محيط الدير، وعناصر الفرقة الأولى أمام محلات القماش، بينما يقول للذين يسألون عن هذه التحركات: إننا نتدرب استعداداً لاستعراض احتفال الاستقلال.

أي ساعة تريدهم أن يكونوا على أهبة الاستعداد؟ سأل سالوستيانو كاشفاً عن زهري النرد اللذين استقرا على الرقمين أربعة وواحد، معلناً بذلك فوزه على الجنرال. كفى، صرخ غونغورا ملوِّحاً بالرقعة جامعاً أحجار زهر النرد. عندما كان جميع الجنود في مواضعهم، دخل الجنرال إلى غرفة الرئيس، وعَبَر بدون إلقاء التحية، مباشرة إلى الشرفة المطلة على الساحة، وقال من هناك: حتى لو كان الأمر يتعلق بتنظيف الرمص سيدي الرئيس. من هناك وهما واقفان على الشرفة أحدهما يزرر السترة الرسمية التي تصل إلى الركبتين والآخر يصحح وضع قضيبه، شاهدا البغلة البيضاء مشدودة بأربطة ليوديغاريو وهي تدخل الشارع الملكي، ويحيط بها جمع من الأشخاص أقوياء البنية رثّي الهيئة، الذين كانوا يرقصون ويتبادلون الأنخاب بالأواني المصنوعة من ثمار الشجر.

قال الرئيس: لا أحد يتحرك حتى أعطي الأمر بذلك. بينما

صرخ الجنرال سالوستيانو، الذي كان يرمقه من الساحة: لا أحد يتحرك حتى أرغب بذلك. القوات، التي اعتراها التوتر، راحت تفتش، مذعورة، الجموع البيضاء التي بدأت تملأ الساحة من دون انفعال، وبالكاد لاحظت حراب البنادق والمدافع التي كانت تراقبهم. وعندما دخل آخر مشارك في المسيرة، وجه ليوديغاريو خطواته البطيئة باتجاه القصر، مقترباً من الجندي الذي كان واقفاً تحت الشرفة مباشرة، وخاطبه قائلاً: يا أخي، لم نأت من أجل الحرب، أحضرنا الحياة داخل مزوداتنا، هل تريد جرعة صغيرة منها؟ سأله ذلك في الوقت الذي قدم له آنية كان يحملها بيده.

في البداية، تلفّت الجندي حوله بعينين مشتتين تماماً مثل عيون رفاقه، ثم التفت إلى الخلف باحثاً عن أوامر سالوستيانو، الذي كان ينظر إلى أعلى متيقظاً لما يمكن أن يشير به الجنرال، الذي لم يصدر عنه أي رد سوى أنه حكّ باطن فخذه وتثاءب طويلاً. ماذا تريد؟ صرخ الرئيس. تقاسم فرحتنا قليلاً، أجاب ليوديغاريو. هيا أيها الجندي، اقبل ما يقدمونه لك، قال الرئيس ذلك بصوت آمر لم يكن قد سمع في العاصمة منذ يوم الاستحواذ على السلطة واستلام الوظيفة حين قال: «أوافق»، وذلك عندما سألوه إذا ما كان يريد أن يقسم على حماية الوطن. وما إن رشف الجندي الصغير الرشفة الأولى حتى حقنت وجنتيه بالدم، ولم يتمكن من منع نفسه من الضحك عندما أحسّ بجسده وهو ينبعث من جديد.

رويداً رويداً راحت تملأ الأواني المصنوعة من ثمار الأشجار من المزودات المنتصبة وسط الساحة، وراحت تنتقل من يد إلى أخرى وصولاً إلى صف الجنود الذين ما كانوا قد فهموا بعد ما كان يجري، فقبلوا لأن

الرئيس طلب منهم ذلك وما ندموا، ففي الحال تحولت الأفواه إلى ابتسامات قبل أن تصبح قهقهات خارجة عن السيطرة ذكرتهم بأنهم مجرد أطفال بلهاء، وبالتالي، فإنه كان من السهولة بمكان ترك الأسلحة ملقاة على الأرض والالتحاق بركب من ينشدون الأغاني الفرحة على مسامع أصحاب البنى القوية.

وقبل أن يهبط الليل على الساحة، كانت قد تشكلت حفلة كبيرة استبدلت فيها سترات الزي الموحد للرجال وغطت البشرات الخشنة للمشاركين في المسيرة، حفلة كانت الأذرع فيها تبحث عن بعضها بعضاً للتحول إلى عناقات، حفلة راحت الأفواه فيها توفر جهد البحث عن الأواني الطبيعية لتتقاسم فيما بينها رشفات شراب الحليب السحري. الرئيس وكاتبه والجنرال غونغورا كانوا يتأملون من الشرفة تلك الحفلة المجنونة المنتعشة من المرفأ البعيد بفعل نهدين ذاويين لامرأة عجوز.

بالكاد كان الفجر قد بزغ عندما طرق ليوديغاريو رأس الجندي الصغير الذي كان قد استسلم للنوم متشابكاً مع سيقان البغلة وهمس في أذنه: بني، قل لمن يجب أن يقال له أني أطلب مقابلة مع الرئيس، لكن ليس خلف الأبواب المغلقة كما اعتاد من يقودون؛ لأني أريدها هنا في الساحة مع الناس حتى يسمع الجميع. الجندي الصغير تمطط طارداً الكسل، الذي نام نوماً هادئاً بين راحتي يديه، وراح يبحث عن السترة من دون أن راوده القلق حيال عدم العثور عليها، ثم أخذ رشفة مما تبقى من حليب في الآنية، وعندها فقط انتصب واقفاً وترك خطواته فاقدة الشهية تتبع الواحدة الأخرى وصولاً إلى الإصطبلات. ومن دون أن يحرص على كبح التثاؤب، الذي كانت تفوح منه رائحة ليل طويل مفعم بالسعادة والسرور، حيّى الرائد سالوستيانو طالباً الإذن بالكلام، الأمر

الذي أيقظ الرائد بجهد جهيد من ذلك السبات الذي خلفه بقاؤه الليلة بطولها يراقب ساحة منتشية من الحليب، لإخباركم بأن رجل البغلة البيضاء يطلب مقابلة مع الرئيس في الساحة ويريد أن يسمع الجميع حديثهما. أي شيء آخر أيها الجندي؟ لا شيء، أجاب الجندي الصغير فاركاً عينيه واستدار نصف دورة للبحث عن القوائم البيضاء التي كانت قد منحته أحلاماً حلوة.

سالوستيانو وجد غونغورا متلوياً في صف المعالف وهو ينام الساعات التي سرقها منه الحليب اللبني ليلة أمس. رجل البغلة البيضاء يريد التحدث مع الرئيس، قال ذلك موجهاً له ركلات بنعال بسطاره. ديوث، دعني أنام، كانت العبارة الوحيدة التي رد بها الجنرال. حينئذ صعد سالوستيانو إلى مكتب الرئيس، طرق الباب مرة، مرتين، ثلاثة، أربعة مرات وأستمر بالطرق مرات كثيرة إلى أن فتح الرئيس بهالة على العينين وصلت إلى ذقنه. ما الذي تريده أيها الرائد؟ إبلاغكم بأن قائد الجمع يطلب مقابلة مع حضرتكم، يطلب منكم أن تتكرموا بالنزول إلى الساحة للتحدّث أمام كل الناس. من يظن نفسه ذلك التافه ليأتي إليّ ويطلب مني مقابلة؟ لينتظر وهو جالس على نحو جيد؛ لأنه في هذه البلاد من يضع القواعد هو أنا.

سالوستيانو عاد إلى الإصطبلات ليتيقن مما كان على علم به مسبقاً: «بين رئيس لا يستيقظ وجنرال ينام على القش، أقف أنا هنا لإنقاذ الأمة»، فمشى عبر الساحة بين أجساد متساقطة تشي بأحلام خاملة حتى وصل إلى البغلة البيضاء. ليظهر صاحب هذا الحيوان، طلب ذلك وهو ينظر إلى الوجوه الفرحة التي استيقظت على دوي صرخته، بينما أطل ليوديغاريو برأسه من بين جموع الناس ورفع إناءه

قائلاً: أنا هنا في خدمة حضرتكم وخدمة الوطن. من فضلك عرف بنفسك، أمره الجنرال. أنا مجرد شخص يأتي ليقدم اقتراحاً للرئيس. ما هو؟ سأل الجنرال. أريد منه أن يشرَب معي من هذا الحليب الذي يبارك أرضنا، قال ليوديغاريو ذلك وهو يقدم للجنرال إناءه.

سالوستيانو قبل مشمئزاً، لكن مجبراً بفعل العيون الكثيرة التي كانت ترقب فمه، فشرب رشفة صغيرة ببطء، وعلى الفور بدأ شارباه الشائبان تذكر الأبنوس الذي كان يلونهما في الزمان القديم ولحيته التي كانت تصل إلى نقرة عنقه غطيت بالشعر الأسود الذي رافقه منذ اليوم الذي ولد فيه. كيف تبدو لك هذه التقدمة؟ سأل ليوديغاريو. جديرة بالقبول، أجاب الجنرال ماداً الإناء ليملؤوها له من جديد.

ما إن انتصف النهار حتى غصت الساحة بالناس الذين استمروا في الوصول والفضول يعتريهم من كل الأحياء والحارات، وكل واحد منهم كان يستقبل بإناء طافح بالحليب وعناقٍ يمتد له من أياد لا أحد يعرف من أين تبدأ وإلى أين تنتهي. عمد سالوستيانو إلى تركيب منصة في وسط الساحة محاطة بالكراسي الخاصة بالنخبة العسكرية، وهي مجموعة صغيرة من أصحاب الكروش العجائز الذين كان يترأسهم الجنرال غونغورا مرتدياً زياً احتفالياً موحداً معاراً؛ لأن بزته كان قد فقدها في ساحة مصارعة الديكة تحديداً في اليوم الذي نصبوه قائداً عاماً للقوات المسلحة. وصول الرئيس كان من الممكن أن يمر مرور الكرام لو لم يلاحظ ليوديغاريو لمعان طيات صدرية سترته المصقولة والمتدلية حتى ركبتيه، فجأر طويلاً إلى درجة أن الساحة كلها لاذت بالصمت.

حينها رأى الرئيس الفرصة سانحة لجعل صوته ينافس صوت

العمدة، وقال: جئت لأن الشعب طلب مني ذلك؛ لأن صوت الشعب في هذه البلاد هو صوت الله، ولأن كلماته مسموعة دائماً، وستبقى كذلك مدوية في جدران القصر وتكرر آلاف المرات كي تنتقل وتعيش في قراراتي يا سيدي، قال ذلك مبتلعاً ريقه الذي تخثر بسبب الإفراط بالخبث والتملق. أدعوك لأن تشاطرني هذه المنصة وأن تجعل حسانك الجديدة حساني أيضاً. أوافق على الدعوة، أجاب ليوديغاريو مقترباً من المنصة حاملاً معه إناء طافحاً؛ لأن ما أحضره معي ليس وعود يائسين، أقدم لكم هذه الآنية التي ملئت بحليب إلهنا، مع هبة منحتنا إياها العناية الإلهية كي يملأ الأطفال الجوعى بطونهم وكي يعود الفقراء المعوزين ليشعروا بالأمل.

مع أول رشفة، أحسّ الرئيس كيف أخلت هالة عينيه المكان لحقنة الحياة التي دخلت إلى جوفه من بوابة فمه، وبعد مرور ثانية، نسي الطرق الحسنة التي يتعين على رجل بقامته أن يحافظ عليها، وشرب مبللاً سترته حتى القطرة الأخيرة من الحليب الذي تمكن لسانه من العثور عليه. وقال حين استعاد همته: أخي، على الرحب والسعة، نتقاسم الرايات ونجعل من هذه الأرض، المنكوبة بالزمن، حلماً محققاً. أقدر تقدمتكم سيدي الرئيس، قال ليوديغاريو بينما كان يخرج من جيب قميصه قلم الحبر ذاك الذي وقع به أوراق تنصيبه، لكني أقترح أن نسأل إخواننا الحاضرين عن الشخص الذي يجب أن يكتب مستقبل هذه الأمة.

الجماهير زمجرت مساندة العمدة مهيجة من المذاق المخدر للحليب. حينئذ همس ليوديغاريو في أذن الرئيس وقال له: أخي، إذا كان قابيل قد قتل هابيل من أجل فتات الطعام، فأنا لدي أسباب أكثر

لقتلك، إن كان رخاء شعبنا يتوقف على ذلك، أعلم أنكَ ستعرف كيف تتفهم أن الوطن يحتاج دوماً إلى تضحيات.

رفع قلم الحبر وغرسه في الوريد الوداجي للرئيس، لكن هذه المرة لم يملأه بالدم، بل فضل سحبه بشكل عنيف حتى تغرق دفقات الدم الكثيفة الوجوه الشاحبة لكل من غونغورا والجنرالات الآخرين، الذين كانوا قد أصبحوا خاضعين على يد مجموعة من الجنود يقودهم سالوستيانو. فاحتفلت المدينة بأسرها بأوانٍ خشبية مملوءة بالدم المحلل بالحليب بصعود إله إلى سدة السلطة.

❖ ❖ ❖

ثلاثة أقمار مكتملة مرت قبل أن يقرر الأوائل ترك الساحة والعودة إلى منازلهم، ثلاثة أقمار جاء خلالها إلى الساحة يومياً قوافل جنود يبحثون عن الحليب في الخزان – السد؛ لأن كميات الحليب في العاصمة كانت قد نضبت، ثلاثة أقمار انتهت تحديداً مع وصول مهندسين إلى الميناء يرتدون ملابس حمام سميكة وراحوا يتبادلون مطويات عملاقة رسموا فيها متاهات من الخطوط بأقلام مشحوذة. سيدتي، نحن بحاجة إلى توسيع الخزان، قالوا لي ذلك بينما قبلوا بمشاطرة طفلاتي بعض الأكواب، وأضافوا: إن مصير الأمة كلها يتوقف عليك الآن. عليَّ لا يتوقف مصير أحد حتى أنا، نحن ندين لها ولنهديها العنودين الصلبين اللذين يغذيننا جميعاً، أجبت مشيرة إلى نولفا، التي كانت قد خلدت للنوم متحسسة اليدين الصغيرتين للطفلة وهي تداعب الثدي الذي كانت ترضع منه.

بعد مضي أسبوع، وصل عمال وجنود ليشغلوا الأمكنة التي كان ينام فيها مشوهو الحرب مقطعي الأطراف والأمهات مع أبنائهن. كان وداعاً قصيراً عانقني خلاله المشوهون ببقايا أعضائهم المبتورة، والأمهات وعدن بتقديري واحترامي دائماً، والصغار سألوني مباشرة إن كان بوسعهم العودة يوماً ما، كان خروجاً فاتراً لأننا جميعاً علمنا أن الحياة ستعود لتبدأ من جديد، هم؛ لأنه كانت بانتظارهم مخيمات الجنود ببواباتها المغلقة بستائر من نسيج العنكبوت، ونحن؛ لأننا كنا نعلم أن الليالي ستغص من جديد بتشنجات سريعة لرجال جزعين، مسير أبدي حول البركة مع قطع رقيقة من القماش لتأمين الرغبة التي كانت تحفزها أكواب الحليب.

جدران حيِّنا راحت تدفع بعضها بعضاً متساقطة كقصور أوراق اللعب العملاقة، وكانت توقظنا في الصباحات الباكرة بصرخات تطالبنا بالحذر من أنهم أعدوا تفجيرات وسحب مخنوقة مصحوبة بالغبار، الجدران الوحيدة التي تركوها سليمة كانت جدران بيتنا، وذلك بأمر مباشر من الرئيس الجديد. أما أصحاب الثياب الرثة الذين كانوا يعيشون بين ظهرانينا كجيران، فقد رحلوهم إلى سفح الجبل، حيث كان هناك الكثير من الناس إلى درجة أنه ما كان مهماً إن حشروا المزيد منهم هناك، ورويداً رويداً، أصبح بيتنا محاطاً بذلك اللاشيء الأبيض الذي بدأ يغذي بلدنا.

ذات صباح، دخل كاليكستو إلى غرفتي صارخاً: سيدتي، خلعوا لنا الأرض، عن ماذا تتكلم؟ ألقِ نظرة فحسب، شاهدي ذلك بنفسك. في الخارج لم يعد هناك شوارع ولا بيوت ولا ميناء، لم يكن يرى سوى البياض وصفيح كان المهندسون يتناقشون فيه. ما الذي فعلتموه؟

صرخت بهم. اهدئي يا سيدتي، البيت يعوم الآن. وكيف تنتظرون أن يصل الزبائن؟ كان ذلك أول سؤال خطر ببالي مغتاظة من الغضب. أجابوني محطمين استبداد سؤالي: اهدئي، فلقد أعد السيد الرئيس كل شيء، هذه الليلة ستخرج من الميناء باخرة ستأتي للبحث عنكن في الخزان- السد، لذلك ننصحكن بترك ما يكفي من الشموع المضاءة على النوافذ، ومؤونة الأسبوع تركناها لكم في الخزان المربوط خلف البيت. على الأقل تركوا لي مكاناً أنام فيه، سمعت كاليكستو يهمهم بينما أغلقت الستارة.

عندما هبط الليل، أنيرت كل نافذة من نوافذ البيت بصف من الشموع، وطفلاتي رحن ينتظرن جالسات على حافة البركة، بينما استلقيت على إطار الباب إلى جانب كاليكستو، الذي كان يحمل مصباح زيت. سيدتي، ثمة شيء يطوف هناك، قال وهو يؤشر لي باتجاه نتوء يهتز فوق الأمواج مقترباً من البيت، وفجأة أصبح قريباً جداً إلى درجة أني تمكنت من رؤية العظام الطويلة لهيكل عظمي وقطعة من القماش ملطخة بالتراب كانت تغطيه، قريب جداً إلى درجة أني تمكنت من التعرف على الملابس الرثة التي استخدمتْها أرانا يوم المخاض، وإلى درجة أني تمكن مني الشعور بالخوف من أن أيديه أمسكت بالأرضية وبذلك الشبح الميت وهو يدخل لنا الرعب في قلوب زبائننا. أحضر قضيباً من الخيزران، قلت لكاليكستو. وبقوة هائلة بذلها، تمكن من أن يدخل الجسد الضخم أسفل البيت منتظرين أنا وهو خروجه من الجانب الآخر بعد أن يكون جرفه تيار ما.

بيد أن الجسد - الجثة بقي يبحر بمحاذاة الخزان، تماماً حيث كان مدفوناً عندما كنا نعيش على اليابسة. حينئذ، نادتني نولفا، التي

استيقظت من أحد أحلامها، التي راحت تطول الواحد تلو الآخر، لأقول لها ما الذي كان يفعله الهيكل العظمي هناك. إنه جسد أرانا، الذي لم يعتد العيش بعيداً عن هذا المنزل، أجبت وأنا عائدة إلى الباب.

من بعيد، لمع ضوء ضئيل سرعان ما طغى على ضوء شموعنا، كان القارب الأول من أصل قوارب كثيرة راحت تقترب بما تحمله من رجال مفرطين في المجاملة، ولعابهم يسيل وهم يطلون من الشرفات، كان الأول الذي قلت له: «على الرحب والسعة»، والأول الذي لم أفهم جوابه؛ لأنه كان مجرد نفخات غيظ تطلقها حيوانات جائعة، الأول الذي رسا في الليلة الأولى من أصل ليالي كثيرة مشابهة كثيراً لليالي السابقة إلى درجة أنه لا تمايلُ اللهب ولا تمايلُ الأمواج جعل من ملاحظته أمراً ممكناً. الليالي أعقبت النهارات والشهور الأسابيع، الوقت تنكر متحولاً إلى بيت كان قد أصبح منارة عائمة عرفت السفن كيف تصلها دائماً.

وفي معمعان ذلك الذهاب والإياب، بدأنا نسمع أن الأنبوب اللبني الوطني كان يروي صحارى الشمال وغابات الجنوب وأن أمتنا استعادت شبابها مبتكرة صفقات وأنها شقت طريق التقدم والازدهار، وأننا كنا قد طعمنا ضد الجوع والأمية، وأن المفاوضات كانت جارية مع قوى الشمال لتصدير ذهبنا الأبيض. كل شيء كان بمثابة معجزة كبيرة عادت إلى رسم الواقع حين دخلت نولفا إلى حجرتي والطفلة على يدها. وقالت لي: لقد توقفت عن الرضاعة، نزلت من بين يدي ومشت.

في أقل مما يستغرقه القمر حتى يكتمل ويصبح بدراً، أصبح بحر الحليب بحيرة، وفي أقل مما يقدم فيه عشاء، أصبحت البحيرة مجرد بركة تسمح برؤية أنقاض ما كان فائضاً، ورويداً رويداً، بقي بيتنا هادئاً وعاد هيكل أرانا العظمي إلى اليابسة. وفي يوم من الأيام توقف التمايل

نهائياً؛ لأننا رسونا تماماً في الشارع الذي كنا قد انطلقنا منه، فخرجنا جميعنا بما فينا الطفلة، لترك أقدامنا الحافية تتذكر معنى الثبات الذي كان. الطفلة الفضولية كجراء كائن بشري، أخذت حفنة من ذلك التراب المستنقعي، الذي بقي بلا حليب، ووضعته في فمها وبصقت على الفور.

وصل من العاصمة، فجأة، نبأ يفيد بأن الرئيس قد أعدموه من غير محاكمة قانونية بوصفه مجرماً في الساحة التي نصَّب نفسه فيها، وعطاش الحليب شربوا من عنقه، وهكذا تركنا السلام الأبيض خلفنا وبعثنا في الموت الأحمر من جديد.

# 3

الأرض الراسخة أثارت فينا جميعاً الحاجة للألفة والحميمية، وللعثور تحت الشراشف على أيادينا وتركها تتعقب المنحنيات بحثاً عن الحدائق والمخابئ حيث ستنشد أنامل الأصابع نشيدها . لذلك ظلت أبواب البيت مغلقة، باب المدخل كي يظنوا في الميناء أننا غرقنا، باب الفناء كي لا يقاطعنا كاليكستو باندفاعات الأنباء السيئة، باب نيكنا؛ لأنها بدأت تتخيل أن أصابعها كانت فراشي وبشرتها رق، باب نينوسكا؛ لأن إحدى يديها أصبحت يد طفلة والأخرى يد معلمة، والاثنتان راحتا تلعبان لعبة تعليم وتعلم كيفية السير عبر الجلد، باب ساثاما؛ لأنها استخدمت راحتي يديها لتهدئة الأصابع التي تتبعت بشغف فتحاتها، أما باب غرفتي، فلأني توقفت عن فتح الفخذين متذكرة ذلك المساء الذي التقطني فيه قبطان عجوز بيدين من السنديان المزند من الرصيف ليأخذني إلى قمرته، ويطلب مني هناك أن أتعرى وأتركه يتأمل جسد فتاة خبيرة عمرها خمسة عشر عاماً .

وما إن أشعل غليونه حتى أحاط بنا ذلك الدخان الحلو، انتشينا، جعلني أحس بأني غير مرئية، حرة في كوني صبية لعوب، وحينها تمكنت من الرقص على إيقاع الموسيقا التي ابتكرتها في رأسي فيما كان يرمقني من خلف الدخان دون أن يحرك ساكناً سوى يده التي كانت تحمل

الغليون وشفتيه اللتين تمتصان بعضهما بعضاً وتبتسمان كلما أغلقت عينيّ، وكنت أحرك الردفين ببطء متمططة بطريقة لا غنى عنها، راقصة من أجل الرقص فقط، وكانت تلك متعة سلت أيامي وأنا طفلة عندما كنت أتأرجح طيلة فترة المساء مبتكرة أغاني على إيقاع انكسارات الأمواج على الرمل.

كبحت تقدم يديّ، فقد سمعت صرخة حادة تنطلق من الطرف الآخر للممر، عندما اكتشفت إحدى طفلاتي في جسدها ما كان يحدث في كل البلاد، عندما أصبحت اللحوم رخوة ودروب الحرير ملغمة بالمطبات، عندما تحولت ألوان ثنايا الجسد جميعها إلى اللون الرمادي. ذهبت، إذن، إلى غرفة نولفا ووجدتها بعينين مسمرتين في السقف هامسة بمحاولة سلام ملائكي بينما كانت الطفلة مستلقية بجانبها تلهو بوضع أصابع قدميها في فمها. إنه اليوم الموعود، قالت نولفا، رافعة يدها لتركها تسقط بشكل خفيف على رأس الطفلة.

وقفت بمحاذاة السرير وتمكنت من رؤية كيف تخلّى جلدها عن اللون الرمادي ليستعيد اللون النحاسي للهنود الحمر، الذي جعلها مرغوبة كثيراً بين الضباط، وكيف أصبح فخذاها المنقوشان بملايين خيوط العنكبوت الحمراء والزرقاء مصقولين لامعين وراسخين ومخروطيين، وكذلك بطنها المزين بنجوم عميقة بدت كأنها محابس مغلقة على نحو سيئ، وكيف راحت تلال الشحوم تتحول إلى خطوط منقوشة بعضلات مراهقة، وكيف تخلّى شعرها عن البياض وبدأ يغطي نفسه، من الرؤوس حتى الجذور، بلون أشعة الشمس ذاك الذي تغنى به طويلاً شاعر أعور في الساحة العامة عندما لم يكن قد فقد عينه الأخرى، ونظم لها القصائد في المساءات الناعسة.

أصبحت كلها فتية، ومن ثم طفلة وتحديداً قبل أن تدرك الطفلة بأنه لم يعد لها أم، بل شقيقة صغرى، حيث بدأ جسد نولفا يتحلل ويصبح غباراً، واختفى مع العطسة المدوية التي أثارتها الطفلة فيها. فراحت عيناها تبحثان عن النافذة وبخطوات صغيرة جداً سارت نحوي على أثر ما كان نولفا.

ولج كاليكستو مثل إعصار مائي صارخاً: سيدتي، سيطردوننا من البيت. في تلك اللحظة بدأت تسمع خطوات لا تعد ولا تحصى لمسيرة بطيئة ما كانت تصل قط. لكن عندما أطلينا برؤوسنا من النافذة، تمكنا من رؤية جمع من العجائز بلا أسنان وبأظافر طويلة يلوّحن بمكانس وأغطية طناجر بدت كأنها رماح ودروع، عيونهم الرمادية كانت تبحث عنا في أفق أبعد من شلالات المياه البيضاء وحسور البصر، فهبطت راكضة إلى الصالون وطلبت من كاليكستو إحضار السيف القصير، وقفت عند الباب مستعدة للدفاع عن ملاذي، ملاذ بائعات الهوى المستهلكات والمتآكلات، في انتظار وصول الأقدام المتعبة لجيش العجائز إلى البيت. نريد حليباً. قال أحدهم بصوت أراد أن يكون صرخة من دون أن يتمكن من تحقيق ذلك. نريد حليباً، عبارة راحت تكررها الأفواه ذات الشفاه الجافة والمتشققة. نريد حليباً، عادت تلك الضجة تكافح دون أن تنتصر على صفير الريح وهدير البحر البعيد. وبجهد خائر لألف عجوز، رفعوا الحجارة عن الأرض وحاولوا رميها على البيت، متمكنين فقط من ضرب بعضهم بعضاً، ملطخين أنفسهم بالوحل الحليبي الذي استنقع في برك صغيرة جداً.

رفعت السيف الصغير وأوضحت صوتي استعداداً للصراخ: لا يوجد المزيد من الحليب، لقد رحل عنا... رحل عنا، كررت ذلك

محاولة تصديق الأمر وأنا أستشعر كيف راحت التجاعيد تنبعث في عنقي من جديد. الوجوه الذائبة للحشد تجمدت في تكشيرة فيها خليط من الخوف والتريث. لا أعرف من أين وكيف استجمعوا قواهم لمواصلة المسيرة ضد بيتنا. كانوا قريبين جداً إلى درجة أن أنفاسهم النتنة والخالية من الأسنان سممتنا. لم توقفهم سوى صرخة وحيدة بقيت تدوي في أنحاء هذا البلد المتآكل بالوعود الكاذبة، عواء دوّى بقوة هائلة جعلتنا نتطلع إلى السماء.

أيها السادة الطفلة تشعر بالجوع، كان الشيء الوحيد الذي قلته قبل إغلاق الباب. العواء عاد ليدوّي ويسمع في جميع الأرجاء، متبوعاً بنواح أمهات شاهدن أبناءهن يموتون شائخين قبل أوانهم، وحاولت الفرار بخطوات بطيئة مترددة لم تتمكن إلا من التعثر ببعضها بعضاً.

صعدت ووجدتها واقفة في منتصف الغرفة بينما كان يخرج من بين ساقيها سائل أصفر رائحته حلوة سرعان ما بدأ يصل إلى قدمي. مشيت نحوها، رفعتها وتشابكت يداها الصغيرتان الطريتان بعنقي على إيقاع كل ذلك الحب الذي تلقته من نولفا. بحثت بعينيها عن عينيّ وابتسمت لأرى في فمها تلك النقط البيضاء المشحوذة لأسنانها حديثة الولادة. وتحت تأثير ملامساتها الرقيقة، بدأت أشعر بشيء يشبه ما كانت تثيره ملاطفات أمي في نفسي عندما لم تكن قد سارت على جميع أيادي الميناء بعد.

تذكرت تلك الليلة التي عادت فيها من سوق الأسماك، واقتربت من سريري وبنعومة قصوى، كما لو أنها أرادت أن يبدو ذلك جزءاً من حلم، قالت لي: اعذريني يا طفلتي، ليست خطيئتكِ، لا يتعين عليك أن تدافعي عن أبيكِ، الذي كان والدي أيضاً حتى اليوم الذي تعبت فيه

من لياليه المضطربة وطعنته بالمقص، لأدرك بعد مضي أسبوعين أن ذلك كان سدى؛ لأن حياته، لعنته، تأبدت في، أو بالأحرى، فيك أنت، الشخص الوحيد الذي سأكون عاجزة عن قتله، ليست خطيئتكَ أني لا أريد السير في الشوارع وإني لا أريد مواصلة تنظيف الأسماك لأحضر لك الطعام، ليست خطيئتك أن أخشى عليكِ من مستقبل أسود، ولذلك تركتكِ محبوسة كل يوم للحيلولة دون أن يقترب منك، وأنتِ جالسة تلعبين على الرصيف، ذلك المستنسخ عن والدي ويقولَ لكِ: أيتها الطفلة الحلوة، أتريدين أن نلعب لعبة جزيرة الكنز؟ وأنت تقولين له: وكيف تلعب؟ وهو يجيبك: أنتِ الجزيرة وأنا سفينة القراصنة الذين يبحثون عن مكان يدفنون فيه الذهب الذي سرقوه في أعالي البحار، اللعبة تكمن في أن استكشف الجزيرة حتى أعثر على المغارة التي أدفنه فيها، فتقبلين تحدوكِ ثقة خالصة به بينما يزرع هو في فرجكِ بذرة اللعنة.

يدا الطفلة الصغيرتان أخذتاني إلى تلك المرأة التي بالكاد وبجهد جهيد تمكنت من مناداتها يا أمي، ذلك أنها ذات يوم لم تعد برائحتها السمكية، تاركة إياي مدفونة تقريباً في ذلك التابوت الصفيحي الذي كنا نسميه بيتاً، ذلك الكوخ الذي بكيت فيه حتى سمعت صوت نولفا وهي تقول: اهدئي يا طفلتي، كانت هي من أخرجني وتعين عليها إقناع صاحبة بيتها بأني ما كنت لأبكي في الليالي حين تتركني وحدي للذهاب إلى العمل.

أنامل الطفلة الصغيرة تشابكت مع شعري الأشيب، وتذكرت كيف كانت نولفا تدفئ قدميّ حين يحل الفجر، وكانت تدغدغني دغدغات ناعمة كانت توقظني وتشي بأنه سيتعين عليّ، في وقت لاحق، ارتداء

الملابس المناسبة للذهاب إلى حيث السيد بوليدورو للتوسل إليه كي يبيعنا بالدين ويعطينا المزيد من القهوة، على أن تمر نولفا في وقت لاحق من الليل لتغلق الحساب.

أحسست بتلك الحرارة الخفيفة التي صعدت من القدمين حتى بطة الساق عندما كانت نولفا تستلقي بجانبي وتضمني وتقول لي ببطء شديد بلسانها المنهك: ألن تهديني فنجان قهوة في وقت لاحق؟ وأنا كنت أجيبها: بعد قليل، وذلك لأنه كان يروق لي كيف كانت حرارتها الليلية تصعد عبر ظهري عابرة حتى تصل إلى مهبلي وتستقر هناك، فكنا نبقى نائمتين لفترة قصيرة إضافية ونحن نتشاطر الحياة.

تركت الصغيرة على الأرض وأنا أشاهد كيف تحولت ابتسامتها إلى قهقهة، وعيناها البيضاوين اختفيتا خلف إيماءة الفزع التي ظهرت من خلال جفنيها. هل أنت سعيدة؟ سألتها ساعية، بلا جدوى، إلى أن يستشف شيء من الغضب في كلماتي، ذلك أني لم أجد فيها سوى ذلك الشعور الفاتر الذي أسميته الحب ذات يوم. هل أنت سعيدة؟ كررت السؤال شاعرة بأن عدوى قهقهتها قد نالت من فمي. فأخذتها من يدها وسرنا حتى حوض الاستحمام الخشبي، أدرت مفتاح الحنفية على أمل رؤية بياض الشهور الأخيرة، لكن، عوضاً عن ذلك، دوت صرخة مريعة لا يمكن أن تنجم إلا عن ماسورة فارغة. نظرنا وانتظرنا البياض الذي لم يصل قط، وحل محله سائل موحل تحول تدريجياً، عندما استسلمنا للقدر، من جديد إلى تلك الدفقات المنشودة من المياه، والبريق متوج الألوان جعلنا ننسى قليلاً الانعكاس اللؤلؤي للحليب.

دخلت أنا، أولاً، وتركت الرطوبة الشفافة تتلون في ثنايا المنبعثة من جديد بينما ركزت هي نظرتها الفضولية على الأصابع الملتوية في

قدميّ لتنظر بعدها إلى أصابعها هي، بينما أبدت اهتمامها ببطتي ساقيها في الوقت الذي كنت أفرك فيه بطتا ساقي بالإسفنجة، فيما أوقفنا نحن الاثنتان معاً النظرة هناك عند المكان الذي ينذر بانغلاق الفخذين، والذي يقول أنه يفتح لهم بوابات السماء. بقيت هي ساكنة وذقنها مسمّر في صدرها محاولة فك لغز ذلك الجرح الذي لا يدمي، بينما سارت الإسفنجة على سطح البطن عبر ذلك السفح من الرمال المتحركة التي تخرق عبابها أنهار من النجوم، فعادت تمعن النظر في متتبعة العلامات كمن ينبهر مكتشفاً دروباً جديدة على سطح خارطة، وراحت تبحث بيديها الصفيرتين المتثاقلتين في مهبلها، مندهشة بالعثور على سرة وحيدة.

تعالي، قلت لها، في الوقت الذي رفعتها فيه لوضعها في الحوض. وكما لو كانت تستجيب للغرائز التي حركتها مع نولفا، جلست بين فخذي مستلقية على نهديّ. غسلت لها رأسها بينما كانت هي تلهو برفع يديها وتركهما تسقطان بقوة على سطح المياه لتقهقه فرحة بالطرطشات التي كانت تصفع خديها.

أغلقت عينيّ وسمعت قرعات طبل يديها، التي أخذتني إلى دكان السيد بوليدورو، إلى تلك الليلة التي قالت لي نولفا فيها: انظري وتعلمي؛ لأن حياتنا تتوقف على هذا، فأجلستني على شوال طحين، ومشت حتى وصلت إلى المكان الذي يقف فيه دون بوليدورو، وجلست على ركبتيها، وفكت الحبل الذي كان يثبت السروال ونظرت إليّ مبتسمة بينما كنت أشاهد كيف ظهر ساقان أبيضان رقيقان ذكّراني بالشموع الذائبة نقطة نقطة في الكنيسة، ومن ثم أخذت نولفا تلك القطعة من اللحم الأسمر الضارب إلى السواد والمجعد والحزين وراحت تنعشه

بكلمات سحرية همست بها شفتاها، هناك حيث نمى الوحش مظهراً تقوساً باتجاه اليسار عرفت نولفا كيف توجهه داخلها بأيد خبيرة، وحين أصبح دون بوليدورو على وشك السقوط على ركبتيه، انفصلت عنه وقالت لي: لا تخشيها أبداً، إنها مجرد رماح برؤوس لا تبحث إلا عن مغارة معتمة تبكي فيها دموعها اللؤلؤية، هناك حيث بدأ الضجيج، ضربة وراء ضربة على رفوف الخزانة، ضربة وراء ضربة جعلت الدكان يتمايل، ضربة وراء ضربة راحت تتسارع في كل مرة وتصبح أقوى، قبل أن تتحول إلى أعداد هائلة من البيض راحت تتساقط وتنفجر على الأرض، وإلى قناني ظلت تهتز إلى أن غلبها الدوار، وإلى علب من التتك راحت تتساقط، بدورها، وتحيط حتى بقدمي، علب من التتك حاولت أن أسرق بعضها، لكني عدلت عن الفكرة عندما صرخ السيد بوليدورو: اهدئي يا فتاة.

كانت ضربات تلو ضربات انتهت في محاولة للزئير لم تبلغ سوى أن تكون نواحاً هزيلاً سرعان ما تحول إلى خيط صوت قال: نولفا الصغيرة، ما عدت تدينين لي بشيء حتى الأسبوع المقبل. فتحت عينيّ حين شعرت بجسد الطفلة منبطحاً على جسدي، وكانت تلهي نفسها بمداعبتي وهي تلعب بذكرياتي التي أصبحت حلماً، فشعرت أنها لا تريد أن أعود من ماضي لكي آتي وأسكن مملكة حاضرها المتواصل، وتركت نفسي منقادة بتلك الحالة البرمائية للحلم الذي وهبتني إياه بيديها الصغيرتين.

عدت إلى الأحلام، إلى نولفا تعلمني المشي بالكعب العالي، إلى حين أخذتني من يدي وقالت لي: يا طفلتي، خطوات طويلة وثابتة مع ردفين مضمومين جيداً، فذلك أكثر ما يثير الشهوة في نفوسهم، كل

ليلة عليكِ أن تعديهم بضيق المهبل، وعليكِ تذكر أنه على الرغم من أنها لن تكون الليلة الأولى، فإنه ما من سبب لديهم يجعلهم يريدون معرفة ذلك، غدا سيكون مثل اليوم، وبعد غد كذلك، كل الأيام متشابهة حتى تتراجع ثناياك ويكون عليكِ حينها أن تعدي بالخبرة؛ لأنهم يريدون إفسادنا فمع الرجل الثاني نصبح معلمات نعلم أسرار الحب دون أن يكون لنا الحق في الإحساس به، ومن ثم هندمت نولفا ثوبي، الذي رفعت ثنيته كي يتمكنوا من رؤية ركبتيّ العظميتين فيما كانت العضلات تطل، بدورها، إذا ما تسللت ريح بحرية إلى الشاطئ، جمعت لي شعري في ضفيرتين مضغوطتين، واحدة على كل طرف من الرأس، غطت لي جفنيّ بمسحوق القواقع، ووخزت سبابتي اليسرى لتمسح بقطرات الدم الصغيرة خديّ وشفتيّ قائلة: هذا هو السبب الذي يمنع بنات الليل من السماح بالقبل، فنحن لا نريد أن يتذوقوا دمنا، وطبعت قبلة على جبيني وأغلقت لي عينيّ بباطن يديها الاثنتين، وقالت: عندما تفتحيهما يا طفلتي، لن تنقص الألوان العالم، لذلك من المهم ألا تنسي أبداً من تتعرفين عليهم.

فتحت عيني كانت تغطيهما يدا الطفلة الصغيرتين وتحميانني من الحاضر. التقطهما وشعرت بنبض لا يطاق لقبلة شاءت أن تتسرب من بين شفتيّ، قبلة تركتها تولد في باطن يديها.

أخذت القبلة والتقطتها بلسانها وضحكت مظهرة لي أنه لم يعد هناك شيء. عملياً، بقيت الخطوط فقط وبينها، في كل كف، ما بدا ندبة عميقة ومستقيمة خلفها جرح لم تصب به قط.

❖ ❖ ❖

بخطوات غير ثابتة مشت من الحوض إلى الباب، تاركة في كل أثر تخلفه وراءها التباسات من يهرب نحو السقطات، ومن ثم ذهبت من الباب إلى الحجرة حيث كانت نولفا قد اختفت تماماً، متجنبة، ببراعة، ذبذبات قدميها الملتويتين، فركضت حتى السرير وبقفزة وحش هاجمت الفرشة التي كادت تعيدها إلى الأرضية بقوة ارتداداتها. زحفت صامتة على غطاء السرير وخبأت رأسها الصغير تحت المخدة. تتبعت عريها بعريي، مكتشفة مع كل خطوة أن الحيوان الوحشي الصغير الذي تركته أرانا لنا تحول إلى كائن بشري، وأنه أصبح من الممكن الآن تسميتها بالطفلة.

عريها وعريي محبوسان في الغرفة نفسها، عريي المرتعش والمترهل والمدموغ بعلامات الليالي الوحشية التي انغرست فيها أظافر الزبائن الجوعى في لحمي، وبدمغات جعلت مني خارطة مياه بيضاء تسبح على سطحها جزر كستنائية صغيرة متبعثرة. اثنتان عاريتان متساكنتان الفراغ الذي خلفتاه أرانا ونولفا، عري أشم ومحتشم وجبار يبحث في الخزانة عن رداء من أردية نولفا العجوز ليحمي نفسه من المرآة، التي تظهر لنا، بانعكاسها القاسي والحاد، ذلك الذي نخفيه في غرفة الملابس، أما عريها، فتمدد مقلوباً على بطنه على السرير والرأس مدفون في المخدة. جلست بجوارها وداعبت ظهرها، الذي كان من الممكن أن تغطيه يد واحدة فقط، وعلى الرغم من أني أحسستها فاترة، إلا أن غريزة أمومة مجهولة دفعتني إلى التفكير بأنه ربما سيكون من الأفضل إلباسها.

عدت إلى خزانة ملابس نولفا واخترت قميصاً من قمصانها القديمة، ورجعت إلى السرير ورفعت المخدة التي كان رأسها مدفوناً

تحتها. كانت نائمة وجفناها يشيان بعينين مضطربتين راحتا تلاحقان الأحلام. أجلستها وأنا حريصة على عدم إيقاظها وجعلت جسدها يستلقي على جسدي وبينما رحت أهدهدها بين فخذيّ، أخذت القميص وحاولت تمرير رقبته عبر رأسها، لكن ردة الفعل جاءت فورية: ذراعاها هاجا ويداها أصبحت أمواساً، ورأسها ارتج بارتعاشات شيطانية، فتذكرت لماذا كانوا قد أنكروا علي أن أكون أماً، ذلك أني ما كنت جاهزة لأن تتوقف السعادة أو المعاناة علي أنا وحدي، إلا إذا، وهذا واضح، كان هناك مال في الوسط؛ لأنه مع الزبائن كان بوسعي أن أكون أماً طيبة كثيراً إلى درجة تمكنهم من دفع ذلك المال بسهولة. لذلك أبعدتها، رميتها عند قدمي السرير، حيث تخلصت من القميص بقوة ذراعيها المنتفضين قبل أن أتمكن من تغطية جسدها العاري بمفرش السرير، وأذهب إلى غرفتي ممتنة لهدوء حالة القلق التي انتابت الطفلة.

تلك الليلة، وبينما كنا نرتب الصالون أنا وطفلاتي استعداداً لإعادة افتتاح البيت، راودني شعور بالخطيئة، شعور اعتقدت أنه مدجن، دفعني إلى صعود السلم والدخول إلى غرفة نولفا. كانت الطفلة ممددة في السرير والمفرش مرمي على الأرض ورأسها مدفون من جديد تحت المخدة. كاليكستو وقف خلف ظهري وبصمت مفترس، سأل: هل ستمرض؟ لا، لا أعتقد، نفسها حارة، أجبته وأنا عائدة إلى الصالون.

❖ ❖ ❖

لم تخرج من الغرفة إلا إلى الحمام، في البداية كانت غير واثقة، مجهدة نفسها حتى لا تخونها قدماها، لكن سرعان ما بدأت تقوم بذلك بيقين صيادة تطارد الظلال لتختبئ فيها، جاعلة جسدها العاري يمتزج بالظلام. الشيء الوحيد الذي كان ناتئاً دائماً هو عيناها البيضاوان الحادتان اللتان راحتا، من ذلك الظل الناقص أو شبه الظل الذي كانت تحب الاختباء فيه، تتابعان حركات من يعبرون.

كان كاليكستو أول من اكتشفها، فلقد قال لي شاحباً ليلة يوم الإثنين الذي كانت طفلاتي يسترحن فيه: سيدتي، الصغيرة تكاد تقتلني خوفاً. فلقد ذهبت إلى الغرفة حتى أطمئن عليها، ولم أجدها، فظننت أنها قد تكون في الحمام، لكنها لم تكن هناك قطعاً، فبقيت عند الباب محاولاً اكتشاف أين يمكن أن تكون قد حشرت نفسها عندما رأيت في الظل، الذي يحدثه باب غرفة نولفا، زوجين من النقاط البيضاء يضيئان وينطفئان، إنها ساعة ضرب النواقيس تذكيراً بأرواح الموتى، هذا ما ظننته، فمشيت ببطء، متسائلاً: كيف يعلمون أحدنا وهو صغير السن مقولة: أيتها الروح أنت في زيارة، هل تأتين من طرف الله أم من طرف الشيطان؟ عندما وصلت إلى باب غرفة نولفا، قفزت المخلوقة عارية تماماً كما يحلو لها، وركضت حتى اختفى رأسها تحت مخدة السرير وراحت تضحك، كادت تقتلني من الخوف تلك الطفلة التي ركبها عفريت.

لا تقل هذا، عاتبت كاليكستو، وقلت له: إن الفضول فضيلة تنتزع منا الوقت، لا بد من تركها، ففي نهاية المطاف سيتعيّن عليها أن تعتاد هذا البيت، كاليكستو ذهب ممتثلاً غير راض، وكذلك ذهبت كيهيلي غير راضية عندما جاءت لتقول لي: سيدتي، تلك الطفلة تتعقبني كل صباح

حين أذهب للاغتسال، وكل مرة ألتفت فيها لاكتشافها تختبئ في زاوية ما ولا تسمح لي إلا برؤية تلك العينين البيضاوين اللتين تثيران الرعب في النفس. فقلت لها: اهدئي يا طفلتي، عندما يحدث هذا، ما عليك سوى متابعة السير، فالشيء الوحيد الذي يثير اهتمامها هو النظر. ألن تفعلين شيئاً يا سيدتي؟ كنت قد بدأت بالقيام بذلك فعلاً، فلقد بدأت أعوّدهنّ على أنها موجودة.

المشكلة أنه بعد أن نضب الحليب، لم تشأ أي منهن العناية بالطفلة، ولم ننشغل إلا أنا وكاليكستو فقط في معرفة أين تكون، وكنا نأخذ لها الطعام إلى الطابق العلوي، وكنا نتركها على الكرسي الهزاز ليلاً، منتظرين أن تقرر إخراج رأسها من تحت المخدة لتأكل. في البداية، قررت أن نحمل لها الحساء ومربى السكر فقط، لكن عندما سمعت أسنانها ترتطم بالملعقة، قلت لكاليكستو: أحضر لها قطعة من اللحم. عاد مع كمية سخية من اللحم بالبصل كنت قد تركتها لها في طبقها.

في البداية، نفخت مغتاظة كما لو أنها أرادت إفزاعي، لكنه تبين أنها كانت تلهو فقط، لأنها كانت تدرك، كجميع من في البيت، أن وضعي كسيدة للبيت يمنحني سلطة على سائر الأسرة ومن يستخدمهن، فأخرجتْ رأسها وسمّرت عينيها البيضاوين والهائجتين في عينيّ. قلت لها: جلبت لك اللحم يا صغيرتي، فأنت مستعدة. قطبت أنفها كانت تبحث عن الرائحة التي اقتفت أثرها وصولاً إلى الطبق، ولعقت قطعة اللحم دون أن تقرر تناولها بعد، ومن ثم التقطتها بيديها الاثنتين وحملتها إلى فمها وهي تمتصها بشراهة تماماً مثل لحم نولفا الذي كانت تشفطه شفطاً.

وفي النهاية، غرزت أسنانها المشحوذة وعندما أحسست كيف كانت

الألياف تتمزق، تحول فمها إلى قهقهة لا يمكن السيطرة عليها اختلطت بصوت طفيف صادر عن اللحم الممزق. دنوت منها، وأنا على يقين من أن أسنانها ما كانت تبحث عني، وقبلت جبينها ومشيت باتجاه كاليكستو. وقلت له: من الآن فصاعداً قطع لا بأس بها من اللحم.



مضت الليالي وتعاقبت، والزبائن الشائخون عادوا أكثر شيخوخة، وطفلاتي أصبحن بائعات هوى شائخات، ورحن ينقذن زينتهن ويعالجنها بحمامات الماء البارد لإخفاء ترهل البشرة. والحياة عادت لتكون ليالي طويلة وساعات فجر متعبة، وعادت وجبات الإفطار الجماعية في المطبخ تصحبها القرعة لتحديد من يجلي الأطباق، ومن جديد، كان لنا أيام أحد ناعسة راحت تبشر بأيام إثنين للاستراحة كانت طفلاتي يخرجن فيها إلى الفناء ليغسلن في البركة شراشف الأسبوع والطرحات التي ينساب منها عريهن في الليالي الحمراء.

هي وحدها أثرت على روتيننا المستعاد، بدءاً بروتيني أنا، عندما دخلت غرفتي مع إشعاعات الصباح الأولى وشخرت في أذني، فأجبتها وأنا أتنازع أحلامي: في المطبخ ثمة طعام، ابحثي عن كاليكستو لكي يعده لك، فهبطت وطافت الصالون الرئيسي وهي تشمُ وسائد الكراسي حيث ترك الزبائن وبائعات الهوى أثر أردافهن وتتفحص منافض السجائر المحشوة إلى درجة تفجرت بأعقاب السجائر التي تناثر الرماد منها وافترش الأرض، بعدها تسكعت عبر مباول الزبائن شامّةً الواحدة تلو

الأخرى، كما لو أنها تحاول تحديد رذائل من كانوا قد استخدموها، وفي نهاية المطاف، ذهبت إلى المخزن- غرفة النوم، وجلست بمحاذاة كاليكستو ونظرت إليه بتمعن حتى تسلل بياض عينيها إلى الحلم محولاً كل شيء إلى اللون الأبيض المعتم، كابوس من المرمر جعله يستيقظ. أنا قادم، قال، حينها، كاليكستو حاثاً نفسه على النهوض للذهاب إلى المطبخ لإعطائها قطعة من اللحم كان قد تركها لها جاهزة في اليوم السابق، ومن ثم عاد إلى حصيرته إلى أن بدأ ترتيب الصالون مع انتصاف النهار.

عند هذه الساعة كانت قد تعبت من التعرف على أسرار البيت وذهبت هادئة لإخفاء رأسها تحت المخدة، التي لم تخرجه منها إلا عندما ظهر كاليكستو مع قطعة جديدة من اللحم.

لكن فضولها الخارج عن أي سيطرة سرعان ما شاء تجسيد تلك الروائح التي خلفها الليل، لذلك بدأت تطل ببياضها عبر باب الغرفة لرؤية الأزواج وهم يعبرون ويلعبون على الحب بعد أن أصبح مهنة، ممسكين بأيدي بعضهم بعضاً، بينما فعلت طفلاتي كل ما هو ممكن لكي لا يكتشفها الزبائن خشية أن تفزعهم عيناها ومعها دفع المال أيضاً. حتى أنها ذات ليلة وقفت عارية، متوحشة، ومتحفزة أمام باب غرفتها، لكن من حسن الحظ أن نيكنا صعدت وحدها قبل أن نفتح؛ لأن الزبون جاء وقال لها: أيتها الطفلة الطيبة، أريد أن أجدك في السرير مستلقية ونائمة ورؤيتك تستيقظين وأنت تتحسسين قضيبي في داخلك. عندما ارتطمت نيكنا بذلك الشبح الأبيض ذي العينين الأكثر بياضاً متيقظة لحركاتها، حاولت دفعها إلى داخل الحجرة، لكنها لم تحصل بالنتيجة إلا على عضتين اثنتين في يديها، فهبطت راكضة باتجاه

الصالون وقالت لي: سيدتي، احبسي تلك الطفلة. فقلت لها: أنا لا أفعل ذلك؛ لأنها ليست حيواناً. فقالت: لكنها تبدو كذلك، انظري ما فعلت بي.

رأيت يديها المبقعتين وغسلتهما بقطرات من الروم (عرق مستخرج من قصب السكر)، في الوقت الذي قلت لها فيه: اهدئي يا طفلتي، اهدئي. وتركت نيكنا تشرب قدحاً على البار وصعدت درجات السلم ببطء، مستغلة كل درجة لكي أقرر ما العمل. عندما وصلت إلى باب الغرفة، اقتربت هي لتفرك جسدها بالجزء السفلي من ثوبي، فانحنيت وتركتها تلعق يديّ. لم يبق أمامك من خيار سوى أن تجعلي نفسك غير مرئية، وإذا حققت ذلك، فالأبواب مفتوحة لك، أما إذا ما اكتشفك الزبائن، فلن يكون أمامك سوى باب واحد، وسيكون ذلك الباب مغلقاً.

ليس بمقدور أية واحدة منا الحيلولة دون أن يملأنا الجلد اللحمي، أو أن تحبس الاستدارات سهول الطفولة، إنه طريق باتجاه واحد يفر إلى العلا، لكن عندما يكون في القمة، فإنه يمتنع عن الهبوط. وهي لم تكن، قطعاً، منيعة على حسية الزمن، لذلك سرعان ما أصبحت ساقاها الغليظتان، اللتان تعودان لحيوان قوي، طويلتين ورشيقتين، واليدان الملتويتان غير الواثقتين تعلمتا كيف تزيحان، ببراعة، الأقفال التي خبأتها الرذائل السرية للزبائن، وحدقتاها البيضاوان راحتا توشم بصور تختلسها عبر فتحات أقفال الأبواب بعد أن رأت في لياليها كيف كانت ساثاما تجلس على وجه الزبون الأصلع المتكرش الذي كان يبكي كطفل في الوقت الذي كان يقول فيه: ماما، أعطني ثديي، قبل أن يوجه ضربة رأس إلى مهبلها كي تتحرر مياهه، اكتشفت أريان وهي

تسير على أربعة قوائم مع ذيل حصان مدفوناً في الشرج ولجام يجرها من العنق، ومع كل سحبة من الزبون كانت ترد بنسخة سيئة من الصهيل وبهزة رأس تهيجه.

وسمعت بحذر الاعترافات التي أنشدها قسيس الكاتدرائية على مسمع نينوسكا، وضحكت على المشية الحائرة للجزار عندما كانت كيهيلي تصفعه بضربات على الإلية بألواح السرير الخشبية، كما أنها شعرت بالملل من الخطابات الطويلة التي كان يقدمها الشاعر العاري قرباناً للحوم السمينة تمارا المتهاوية، ومرات عديدة وجدتني وأنا أهدئ نواح الأطفال- العجائز الذين كانوا يحضرون معهم آباءهم العجز ليرونهم ما هي المرأة الحقيقية.

في البداية، لم نلتفت إلى حضورها في الظلال؛ لأنها كانت تغلق عينيها تماماً عندما كانت تتوجه أية نظرة إليها، لتبدأ لاحقاً في فتحهما بشكل بطيء، متيقظة للحظة التي تعود عيوننا فيها للانشغال بأمور أخرى. ومع ذلك، ركزت قدميها بقوة، ذات ليلة، مفعمة بأمزجة فكاهية متحدية، وتركت عينيها الوخازتين تخترقان الظلام بينما كنت أهدئ من روع رجل عجوز كان يبكي جالساً في حجري؛ لأن يديه تشتاقان للبشرة الفتية. عندما شاهدتها، عمدت إلى المبالغة في التعبير عن انفعالتي بشكل ماكر حتى تشعر بأنها مكشوفة لكي تتذكر قواعد اللعبة في بيتي، فخرجت راكضة إلى غرفتها ودفنت رأسها في المخدة، كاشفة لليل عن ظهرها الرقيق الذي كان مرفوعاً على زوجين من الأرداف تشيان بالعظمة.

وفي الليلة التالية، انهالت الشكاوى. تمارا تقول: سيدتي، الطفلة كانت في غرفتي، ساشا متعللة: سيدتي، الزبون رآها تقريباً، نيكنا باكية:

سيدتي، أنا لا أستطيع العمل عندما تكون نظرتها مصوبة نحوي، نينوسكا مهددة: سيدتي، لن أستجيب إن عدت ووجدتها. أجبتهن جميعاً بالإجابة نفسها: طفلتي، هل حاولت إفزاعها؟ وعلى الفور، عدن جميعهن إلى الأشغال، مدركات أنها كانت كالذكريات الحسنة، التي يكفي نفضها باليد حتى تضيع في الليل.

لم يمر وقت طويل حتى بدأت تشعر بالملل من الظلال، وتترك جسدها العاجي يغزو ما هو أبعد من الزوايا. ضحيتها الأولى كنت أنا حين صعدت السلالم ممسكة بيدي أحد الفتيان الشائخين قبل أوانهم، فتى مع أب عجوز قال لي: من الأفضل أن تتعلمي فعلاً ما يجب فعله بذلك الذي بين ساقيك. الطفل- العجوز كان عصبياً، وكان يرتجف، ويده المتجعدة ساحت في يدي بسبب الإفراط في التعرق، ورأسه كان مائلاً باتجاه الأرض كابحاً النظرة الفضولية مع رغبة دفينة بأعماقه في اكتشاف أسرار الحب، اهدأ يا صغيري، في الحياة ثمة أشياء أسوأ، قلت له عندما انتهينا من صعود السلالم، فرفع رأسه وتمكنت من رؤية جبهته المتشققة وخديه الأمردين، وشفتيه الذاويتين اللتين ما كانتا قد قبلتا قط، قبلتهما متذكرة، لوهلة، أيام الحليب.

وعندما انفصلت عنه، اكتشفت عينيه المفتوحتين جيداً مسمرتين في الفراغ، الذي شغلته هي بعريها الأبيض ونظرتها القاسية. طفلة، سمعته يهمس مشوشاً وجزعاً. انتظرني لحظة، قلت للطفل- العجوز تاركة يده تسقط. مشيت باتجاهها وقلت لها: أيتها العاهرة الصغيرة الخرائية، اذهبي إلى غرفتك. لم تتحرك. اذهبي إلى غرفتك، ألحيت دون الحصول على أية نتيجة. وعندما حاولت إمساكها من يدها لأخذها إلى الغرفة بنفسي، كشفت عن أسنانها المشحوذة وهاجمتني

بنظرتها البيضاء تلك التي جمدتي لأول مرة تكون فيها بين ذراعي. وفقط عندما تأكدت من أني أخافها، خطت خطوتين إلى الخلف واختفت في الظلال المنعكسة من باب نصف مفتوح. اهدأ يا صغيري، إنها مجرد صبية متدربة لا تعرف بعد عادات منزلي، قلت للطفل-العجوز ملتقطة يده، التي كانت في تلك اللحظة متجمدة ومرتعشة كحال يدي تماماً.

بعد مضي يومين على تلك الواقعة، جاءت أريان لتقول لي: سيدتي، كنت أقدم خدمة حين بدأ شيء يطن تحت السرير، فاستمريت بالحركة كي لا ينتبه الزبون، الذي ظن أني عشقته وقلبني على بطني بينما انتهزت الفرصة لألقي نظرة فوجدت ذلك الزوجين من المصابيح البيضاء، اللذين دفعاني إلى الصراخ خوفاً والزبون ظن أني كنت أصرخ مستمتعة، فانبطح بكامل جسده فوقي، لكني تدحرجت كحيوان مفترس وجلست فوقه حتى لا يراها، وكان علي أن أنتهي منه في نصف ساعة، سيدتي، يجب عمل شيء مع تلك الطفلة.

غداً أحل المشكلة، أجبتها دون معرفة أني كذبت؛ لأنه لا في اليوم التالي ولا في الأسبوع التالي ولا في الشهر التالي ولا في السنة التالية تمكنت من السيطرة على الصغيرة. لم أعد أجدها عندما كنت أمر على الغرفة قبل فتح البيت، وأصبحنا نشعر بها تتجول عارية فقط، بينما تظهر بين حين وآخر قطعة من بشرتها العاجية أو تلمع بطبقاتها اللبنية البيضاء مفلتة دوماً من أية محاولة لنصب كمين لها للإمساك بها.

تقاسمنا البيت، إذن، مع شبح حليبي.



عندما بدأ استعراض منتصف الليل، ركز الجميع نظراتهم على تلك البشرة المنسابة، التي لا تدرك إلا بالحدس تقريباً، والتي رحن طفلاتي يخفينها ببراعة وذكاء بمراوح الريش المستهلكة والقذرة وبخبرة ألف عام في إخفاء ما سينتهي في نهاية المطاف إلى التجلي، رقصن على مهل وسترن أجسامهن بتلك الحزم التي بدت كأنها أكواخاً. الحركات نوّمت الزبائن تنويماً مغناطيسياً وملأت بآمال مزيفة تلك الأعضاء المترهلة والمتهيجة التي كانوا يحضرونها إلى بيتي لكي نذكرهم في ماذا وكيف يستخدمونها عندما لا تكون عروق الزمن متشبعة بالسنين. للحظات، كانوا يحسون بذلك النبض المفعم بالحيوية، ذلك الضيق في السروال، تلك الرغبات في تحرير ما كان قد تبقى من الوحش غير المروض، فيبدؤون بالوقوف، الأوائل هيابون، والأواخر سريعون، لأخذ الدمى منهن واللواتي كن ينتظرن بشكل منظم جالسات حول البركة الفارغة، التي ملأتها نولفا ذات مرة بحليبها.

وهكذا تبدأ مسيرة الحب المزيف، ليتقاطر كل زوجين خلف زوجين آخرين متهامسين، هم يثنون بالأكاذيب الحلوة على الأجساد الرخوة محتفين بالخصلات المنحلة من شعورهن الشائبة، وهن بالابتسامة نفسها التي تعلمنها في الليلة الأولى، مطلقات العنان لخدعهن كي تنمو على أمل سماع الحقيقة في يوم من الأيام. وقبل دخول الغرفة بالضبط، يقطعن الحلم بسؤال تحتمه مهنتنا علينا: كم يلزمك من الوقت وماذا تريد؟ الإجابات تنوعت، بدءاً بمن يريد الجلوس على السرير للتحدث؛ لأنه وحيد للغاية، حتى من يحضر معه حقيبة تغص بالنبيذ كثير الكحول والأدوات الجراحية المعقمة مستعداً لدفع أي مبلغ من المال حتى يتمكن من ممارسة بتر سلامى خنصر القدم اليسرى.

كان هذا البيت متحفاً كبيراً لما لا يمكن تخيله، حيث يلتقي القديسون والخاطئون للاستحمام بالعسل، الذي بفضل سنوات الخبرة، عرفت طفلاتي كيف يستخلصنه من بين أفخاذهم. بين خليط الرذائل والوعود ذاك كانت تسير بنشاط وشطارة ملكة- طفلة وتطل بوقاحة عينيها البيضاوين من الباب الذي كانت تجده مفتوحاً، أما إذا كانت تجده مغلقاً، فكانت تستعين بتلك النعومة الخارقة التي لم يعلمها إياها أحد وتدير مفتاح سقاطة الباب دون أن تسمع بالكاد قرقعة النوابض.

كما كان منتظراً، بسطت نطاق سيطرتها حتى الصالون الرئيسي، الذي كانت تنزل إليه عندما يكون الاستعراض قد بدأ للتو وتبحث عن الزوايا التي تكدس دخان السجائر فيها، ومن هناك كانت تتفحص الوجوه النهمة للزبائن وتفك شيفرة الإيماءات التي كانت تقول لطفلاتي: «اليوم أريدك لي». أخبرني كاليكستو بحضورها وأنا طلبت منه بغمزة متضرعة أن يخرجها. وراح كاليكستو يقترب بهدوء متخفياً عن هدفه بصينية ملأى بالأكواب الفارغة ونفاضات السجائر الطافحة بينما بقيت هي ساكنة بلا حراك إلى أن أحست باقتراب حرارة يدي كاليكستو منها، فحولت نفسها إلى كائن غير مرئي بإغلاق عينيها وقفزت إلى زاوية أخرى، إلى غيوم جديدة من الدخان، ومن هناك تحدتني بعينيها المفتوحتين جيداً. كاليكستو سرعان ما تعب من لعبة الصياد الخائب وأنا قبلت بالهزيمة، وهكذا تركناها تطوف في أرجاء المكان وتقترب من الزبائن وتتكور في الزوايا جنباً إلى جنب مع الكسالى سامحين لهم برؤيتها.

على هذا النحو تبدل روتين البيت: الزبائن استمروا في الوصول كما كانوا يفعلون دائماً، لكنهم ما عادوا يجلسون وديعين خانعين حول

البركة الفارغة، بل صاروا ينظمون لفات ودوريات كحيوانات جائعة متوقفين في الزوايا ساعين وراء بريقين أبيضين يخترقانهم. وعندما كان يجدها أحدهم، بروح المداراة التي تمكنت من كبح جماح قضبانهم الجائعة، كان يجلس ويتبادل معها الحديث.

ما اسمك؟ يسأل الزبائن الأكثر خجلاً. كم تقبضين؟ يستفهم زبائن الحياة كلها. لكنها لم ترد على أي من أسئلتهم قط، وهم، لكنهم، مقتنعون بأن السكوت علامة الرضا، راحوا يبحثون بأياديهم القذرة والجزعة عن تلك البشرة الضبابية التي كانت تمر كنسمة حاملة معها تلك الشامات البيضاء الحليبية. لم يتمكنوا من لمسها عندما كانت أسنانها المشحوذة تقطع الجلد المتعرج، واللسان الوحشي يتذوق الدم الشائخ والمغبر الذي كان يجري في عروق أمتنا.

الشكاوى والنداءات سرعان ما وصلت إلى مسمعي، وليس فقط من فم الزبائن، الذين راحوا يبحثون عني خلف البار حتى أغسل لهم بالروم جروحهم ويقولون لي: تلك الجنية الملعونة تبحث عما لم يضع منها، كما حضرت طفلاتي بأيديهن الموحلة بأنهار الدموع التي انهمرت من عيونهن باكيات قائلات: سيدتي، زبون هذه الليلة لم يفعل شيئاً سوى السؤال عن الطفلة، ومن أين أخرجناها، وعما إن كانت تقدم خدمات أم لا، وبكم نبيعها لتسخيرها في تجارة جيدة أخرى، سيدتي، هذا ليس عدلاً، فلقد تركت نولفا لها جمالاً أوفر حظاً، ونحن تركتنا أكثر شيخوخة كمومياءات جافة، معفرات، على حافة النسيان. إلى هذا المصير كنا نتحول بينما هي تزهر وتصبح في كل مرة أكثر شهوانية، أكثر سيطرة على خطواتها، أكثر حكمة في سطوتها، ملكة أكثر في هذا الذي كان مملكتي. كنت أعلم أن ذلك غير مقبول، لكن، كالزبائن، كأمتنا، كنت

أعتاد المحن والمصائب، على أن يأتوا عندما يتعبون من الصيد مستسلمين لتهدئة حميتهم بي، كنت أتعلم كيف أكون الطبق الثاني.

بيد أن كل شيء تبدل حاله في الليلة التي اعترف لي أحد زبائني فيها بأنه كان يفكر فيها بينما كنت أحاول نفخ لحمه الرخو بمداعبات لساني، لسان المعارك الألف، لم أكن مستعدة لئلا يفعل سحر مواهبي فعله إلا عندما تكون هي في عقل الزبون، ولأن تتخلى أسراري عن كونها جبارة ولئلا تعمل إلا لأن ظل طفلة مدللة حاضر في الذاكرة، لن أوافق على التخلي عن كوني سيدة بيتي وسيدة كل من يدخل إليه، لذلك بصقت قضيب الزبون وهبطت باحثة عن كاليكستو. كفى، قلت مشيرة إلى العينين البيضاوين اللتين كانتا تضحكان مني خلف بار الصالون الرئيسي.

تلك الليلة، مررت على كل غرفة تاركة على المخدات أوراقاً تحمل الكلمات نفسها: «في المطبخ عندما يخرج الزبائن». واحدة تلو الأخرى راحت تصل طفلاتي بخطوات بطيئة تشي بسيقان منهكة، واحدة تلو الأخرى رحت أستقبلهن بقبلة على الخد وبدأن يجلسن إلى المائدة بينما كان كاليكستو يقدم لهن كوباً من الشكولاته الساخنة. من المؤسف أن أقول، لكن إن أي منا لن ينام اليوم، قلت ذلك وأنا جالسة على رأس الطاولة؛ لأنه ما إن تشرق الشمس حتى نبدأ الصيد. هل سنمسك بالمتوحشة؟ سألت ساثاما. نعم، يا طفلتي، سوف نحبسها في العلية، أجبت وأنا أشاهد كيف كان يتصاعد البخار من كوبي.

سمعت كل واحدة منا وهي في سريرها الخطوات تجول الطابق الثاني، وراحت تفتح الأبواب بصمت للتأكد من أننا كنا مستلقيات، بعدها، هبطت إلى الصالون الرئيسي لتحريك روائح الليلة الماضية إلى أن جلست على أحد الكراسي ذات المسند، ثم أغلقت عينيها واستهلت

رحلة كل مطلع شمس، رحلة تخلط فيها الصور بالروائح لمناجاة الأحلام. نحن بقينا ساكنات منتظرات في صمت أن ينهض كاليكستو، كعادته كل يوم، لكنس الصالون الرئيسي، وأن يعثر عليها متخذة لنفسها شكل كبكبة على الكرسي ذي المسند. وكعادته، أخرج المكنسة من خلف المنضدة وراح يكنس بحركات رتيبة ساعياً إلى أن يكون وفياً للجولة التي يكررها منذ ثلاثة عقود من الزمن والتي كانت مهددة في ذلك اليوم بالنسيان.

كنس على مهل حتى وصلت إلى قدميه أظافر بيضاء، ترك المكنسة على الأرض، أخذ قطعة القماش الذي كان يحملها معلقة بالحزام ومسح كل طاولة من الطاولات. عندما انتهى، عاد من أجل المكنسة وتأكد من أنها باقية هناك، كما وجدها دائماً، بلا حراك مقيمة في حالة اللاوجود، فتذكر تعليماتي وارتمى عليها. لكن لسوء الحظ، لم تمسك ذراعاه إلا بالظل الزلق، الذي خلفته الطفلة وراءها عند هروبها فيما دوت قهقهة بدت كأنها تقول: «أبله، هل اعتقدت أنه كان بوسعكَ إخفاء يديكَ المرتعشتين وحبات العرق التي انزلقت من صدغك وأنت تقترب مني؟» عندما أصلح كاليكستو نفسه واستعاد قواه، كانت الطفلة قد ركضت عبر الصالون، قافزة من طاولة إلى كرسي ومن الكرسي إلى البار، متجنبة الأكواب والقناني، مقهقهة كما لم تفعل ذلك من قبل، محدثة صيحات تدعونا إلى الحرب.

متدثرات بشراشف تالفة، هبطنا على عجل لحضور استعراض مروع: الظل الأبيض منتشر في سائر الزوايا مع العينين البيضاوين خارجتين عن مدارهما بفعل الشعور بالنشاط والخفة، وقهقهة تصمُّ الآذان تتأرجح بين العواء والنواح والضحك، كل شيء يهزأ من أيادينا

المتقلقلة التي راحت تتحرك بسذاجة، معتقدات أنه إذا ما جمعناها، فإنه من الممكن أن نتحول إلى فخ. لكنها رشحت في وسطنا عابرة كالريح بين سيقاننا، وسحبت الشراشف مدخلة الفزع إلى قلوبنا من الرؤية الرهيبة لأجسادنا العارية الشاحبة المنسية من قبل جمال الزمان القديم، مجبرتنا على التخلي عن أية محاولة لإمساكها، متخليات عن تعب سنواتنا.

تركت نفسي تنزلق على الحائط المحاذي للباب، أخفيت وجهي بين الركبتين العظميتين وبكيت متضايقة بلا ورع؛ لأن طفلة وحشية ذكرتنا بأننا كنا على وشك فقدان كل شيء، بكيت مكروبة حتى أصبحت الرائحة لا تطاق. الطفلة أدركت ذلك أيضاً، وتوقفت عن القفز، سارت بخطوات بطيئة نحوي، أمالت جسدها العاري على جسدي، ومدت لسانها وبرأسه جمعت الخيوط البيضاء التي تقطرت من عيني، فقربتُ يديها وداعبتُ وجنتيّ، فجأة أصبح كل شيء صامتاً، فارغاً، لا شيء فاتر تركناه لها ولي في تلك الزاوية من القلب الذي تشاطرناه، وهكذا نسيت الغيظ الذي أثارته في أسنانها، الخوف من عينيها، الألم في تجاعيدي، نسيت أن حيطان منزلي تشققت كجلودنا وتركتها تأخذني من يدي متشابكة مع عنقي وتساعدني على النهوض. متدثرة بعناقها، تتبعني، خطوة خطوة، ومن ثم خطوة أخرى وخطوة إضافية، خطتها كلها برقة قدماها الحريريتان، في تلك اللحظة فهمت سر الخيانة، تركتها تحب عينيّ كما أحبت ثدي نولفا، وهي تمشي إلى جانبي لإرشادها إلى العلية.

❖ ❖ ❖

نحن بائعات الهوى معلمات في الكذب، وهكذا كانت الساعة قد أزفت كي أتعلم العيش ملحقة بها، لذلك تركت خطواتها تتبع خطواتي إلى الطابق الثاني، ولم أوقفها حين مدت يدها لتدوير سقاطة قفل الباب المؤدي إلى العلية، فصعدت معها السلالم الضيقة وطلبت منها أن تفتح كوة السقف حتى تضيء أشعة الشمس السرير الملطخ بالدم، الذي استخدمته أرانا ذات يوم.

أجلستها إلى جانبي، تنفست عميقاً كي تخرج الكذبة من أعمق أعماق روحي وقلت: أيتها الصغيرة الجميلة، في الخارج العالم، في الداخل أنت. حينها بكيت من جديد، جاء مزيد من الحليب، انتهزتُ اقتراب الطفلة من وجنتي لتلعق لأمسك بيديها وآخذهما إلى حيث الأعمدة البرونزية التي تزين رأس السرير ورحت أربط دمية بكل عمود بحبال كان قد أعدها كاليكستو باجتهاد ونشاط.

ابتعدتُ وتمكنتُ من رؤية عينيها البيضاوين تكتشفان روحي. لا أستطيع طلب السماح؛ لأنه في عالمنا ليس لدينا الحق في الندم. بقيت دون أن تتحرك بينما هبطت يداي من ذراعيها حتى الصدر الناعم حيث كانت قد ولدت سلاسل جبلية راسخة، دمعة بيضاء خرجت من عينيها البيضاوين وانزلقت على الخد حين مرت يداي بردفيها وتركت أنّة حزينة تهرب حين ربطت كعبيها بأرجل السرير.

# 4

لا بكاء ولا أنين هبطا من العلية، وحدها خطوات كاليكستو كانت تقترب من غرفتي كل أسبوع ليقول لي: سيدتي، لا تنسي أن تشتري من السوق قطعة من اللحم للطفلة. كنت أتركها له في المطبخ، وكان يقطعها إلى شرائح رقيقة ويضع الواحدة منها فوق الأخرى، تاركاً القطعة الأخيرة دوماً خارج خزانة المأكولات لتقطيعها إلى قطع صغيرة وتقديمها في صينية من الخشب ويصعد بها إلى العلية. قبل أن يقدم لها الطعام، كان ينظفها فاركاً إياها بنعومة بقطع من القماش مبلولة بماء فاتر ومعطرة بقشر الليمون. هي لم تكن تفتح عينيها عندما كانت يدا كاليكستو الثقيلتان تبللان معصميها وكعبيها حتى أن الجروح الصغيرة أخفت البثور، لم تتمرد ولم تنفخ عندما كان يبدل لها الخرق التي كان يضعها بين الساقين لجمع قذاراتها، ولم تتحرك عندما كان يدخل يديه تحتها لتغيير الشراشف دون أن يفك قيدها. بعدها كان كاليكستو يجلس على السرير ويأخذ قطع اللحم الصغيرة ويقربها من أنفها، وينتظر أن تفتح فمها ليتركها تسقط دون أن يقترب منها كثيراً، خشية أن ترغب أسنانها في تذوق دمه رغم أنها مربوطة.

في يوم من الأيام، دخل إلى غرفتي بنفس متقطع قائلاً: سيدتي، الطفلة مصابة بجرح. إنه أمر طبيعي يا كاليكستو، فبقاؤها أيام طويلة

مربوطة أخرج لها الفقاقيع، اذهب إلى الفناء، وخذ زوجين من أوراق الصبار لتصنع لها مرهماً. لا، يا سيدتي، إنها جريحة حقاً، لديها تشققات في باطن يديها وفي باطن قدميها، إنها مفتوحة وتنزف. هل كانت لديها أمس؟ لا يا سيدتي، لم أرها أمس. الفضول أزاح بقايا الخطيئة التي ظلت بداخلي لعدم تذكر كم من الأيام مضت منذ الصباح الذي قررت فيه إخراجها من ذاكرتي، كما لو أني أستطيع بذلك إبعادها عن المنزل، لكن كل محاولتي ذهبت أدراج الرياح؛ لأن الذكريات دائماً ما تبحث عن مخابئ تلجأ إليها، عليات تنمو وتزدهر فيها.

صعدت السلالم خلف كاليكستو مكتشفة من جديد درجات السلم تلك التي لا يزال من الممكن أن ترى عليها الآثار البيضاء لدموعي. لم أستطع الحيلولة دون التفكير في أني كنت أتحول إلى تلك المرأة البدينة التي باعتني البيت ذات يوم، تلك التي قطع كاليكستو لسانها لكي أعد أفضل الكوكتيلات التي قدمت في هذا الميناء على الإطلاق. أيكون قدري أن أصبح غير مرغوبة ويجعلني مستحقة للموت منحورة في زقاق؟

بهذا السؤال وبخطوات متعثرة دخلت ورأيت جسد الطفلة الذي وجدته أكثر بياضاً مما هو في ذاكرتي، أكثر ثباتاً، وجدتها مستمتعة بنفس بطيء يغني أغنية النفوس الساكنة. حينها فهمت طبيعتها، عندما اكتشفت أن المحبس الذي وضعتها فيه خدمها كخادرة لتتحول إلى فراشة لا تنقصها الألوان، فراشة لم تكن بحاجة إلا إلى أن تكون مربوطة هناك تسكن جمالها. كاليكستو احترم افتتاني؛ لأنه كان قد أحس بسطوة ذلك الوحش منذ زمن طويل خلا، منذ أن كانت نولفا لا تزال على قيد الحياة وهو كان يبدل كل أسبوع الأقماع التي كانت الطفلة

ترسم عليها الغيوم بأظافرها. «جمالها يجعل عالمي بائساً»، فكرت بينما كنت أقترب لأقبل جبينها.

سيدتي، هذه هي الجروح التي حدثتك عنها، قال لي ذلك كاليكستو مقاطعاً حالة الوجد التي كنت أنظر إليها من خلالها، وتابع كلامه قائلاً: نعم، أترين، ليس هناك شيء يساعدنا على فهم ما تسبب بها. نظرت متمعنة بواطن الطفلة ورأيت، عملياً، إن خطاً رقيقاً شق كل واحد منها، يبدأ بالإصبع الأوسط وينتهي بمنطقة بما قبل المعصم بقليل، من تلك النقطة كانت تخرج قطرات صغيرة من الدم الغامق في خيط يتدلى من الذراع. لمست الجروح لرؤية ردة فعلها، لكن لم يحدث شيء، وهكذا فتحت جرح اليد اليمنى، واكتشفت أنه في الطرف القريب من المعصم بدا كأنه ناجم عن وخزة مخرز وفي الطرف الآخر أغلق بأكمة صغيرة جداً تبدو كأنها ندبة. نزلت إلى باطن القدمين، فوجدت أن للجروح الشكل نفسه تبدأ بالقرب من الأصابع بنقطة تبدو ندبة وتنتهي بالقرب من الكعب في عمق غامض تخرج منه قطرات من الدم. نظرت إلى كاليكستو وقلت له: غطها بالضمادات حتى لا تشمها الفئران، وسنرى ما الذي يجري لنا لاحقاً.

خرج كاليكستو، وبينما كان يتراجع جلست على السرير لأتأمل جمالها المنيع. على حين غفلة، حرر الجفنان بياض عينيها ونفخت كما لو أنها كانت تتنفس. في تلك اللحظة، أردت تقبيل وجنتيها الناعمتين وأن أنظف بثوبي دماء جروحها، لكني لم أفعل ذلك، بقيت بجانبها فقط، مستحمة بعينيها اللبنتين، مصغية لتأوهاتها الناعمة لجروة حزينة.

هادئتان بالكاد نتنفس، موصولتان برباط غير غير مرئي نسج لنا مشاعرنا وأحاسيسنا، هكذا وجدنا كاليكستو، الذي أحضر في اليد

اليمنى الضمادات وفي اليسرى قنينة من الروم وسطل فيه ماء. في البداية حللنا رباط القدمين، أنا ثبتهما بينما استخدم كاليكستو قطعة من القماش الكتاني بللها بماء السطل لتنظيف الجروح. وعند الملامسة الأولى، ابتسمت الطفلة، ومع كل دغدغة بدت ابتسامتها أشبه بقهقهة صماء، بتكشيرة العضلات البطنية المتوترة، العينان مغمضتان، والتنفس مضطرب. بسرعة، قلت لكاليكستو بينما كان يبلل بالروم قطعة ثانية من القماش الكتاني ويضعها على الجرح.

الصرخة كانت صماء وفجأة تبعها بحر من الدموع البيضاء بللت الشراشف الوسخة. حينئذ جاءت سلسلة رفسات وعضّات وحشية وتشنجات والتواءات وصرخات نبهت طفلاتي إلى أنه في العلية كانت لا تزال هناك حياة. كاليكستو أبعد قطعة القماش المبللة بالروم، فعاد الهدوء. لففت بحرص شديد الأرجل بالضمادات بينما دوت في رأسي، ألف مرة، الأسئلة ذاتها: من أنت؟ من أنا؟

فتح الباب ودخل إلى العلية جميع طفلاتي، تاركات في وجوههن ما ينمُّ عن أنهن كن قد نسينها وأن بياضها بدا لهن الآن مجرد ذكرى عاصفة تتسلل إلى الكوابيس. وعندما شاهدنها، لم ينبسن ببنت شفة، تشنج أعجوبي بقي منقوشاً على أفواههن، انطباع ناجم عن معرفتهن بأنها لا تزال على قيد الحياة وليست منسية، فلقد كانت هناك الجروح الدامية، وكان سلوكي الأمومي. تدمي من يديها وقدميها، همست ليانكا . ماذا تقولين؟ سألت إحداهن. إنها تدمي كما في القصص التي يرويها لوتاريو لي. تأخرت في قول ذلك لبرهة من الزمن دامت أقل من زمن الخروج راكضة من دير الصخرة، حيث كان يعيش لوتاريو مع الكهنة الآخرين الذين أرسلوا، ذات مرة، من العاصمة كي يعلموا القلة

ممن كان لديهم إيمان في الميناء في تلك الليلة نفسها، دخل لوتاريو إلى بيتي بردائه الكهنوتي بصوفه المتلبد برفقة موكب من الكهنة الذين سمّروا رؤوسهم في الأرض لتفادي المنحنيات الشائخات لطفلاتي، دافنين، على هذا النحو، رغبة يستثيرها عادة ما هو ممنوع، متذكرين أن وعدهم كان مع إله السماوات وليس معهن، أولئك اللواتي كنت قد عرفت كيف أحتضنهن في نسختي الخاصة عن الفردوس.

وما إن رأيت لوتاريو حتى أخرجت القنينة التي كان قد تركها بأولها في المرة الأخيرة التي جاء فيها باحثاً عن ليانكا، قدمت له كوباً طويلاً أضفت له قطرات من التنكة التي كانت تحضرها لي في كل مرة يزورها، قطرتان مما كانت هي تبوله بعد أن يخرج من الغرفة ليعود راكضاً يعتصره الندم إلى الدير، نقطتان شربهما، دون أن يدري، في المرة الأولى التي قدمت له كأساً، قطرتان كانتا سر طفلتي لربط زبونها المفضل.

أهلاً وسهلاً، قلت وأنا أقدم الكأس، منذ وقت طويل لم تدثرنا بحضورك المقدس. طأطأ لوتاريو، كما رفاقه، رأسه متجنباً تقدمتي. وتابعت: سلّتني سذاجتكَ؛ لأني لو كنت في مكانكَ، وأعرف أني مكشوف، لكنت تخليت عن أي محاولة لمواصلة التستر على ما هو جلي، لكنت تلقيت الكأس ولكنت شربته في جرعة واحدة متجشئاً بضوضاء داعياً رفاقي لأن يحذوا حذوي، ثم لكنت طلبت من ليانكا أن تحشر نفسها في ردائي الكهنوتي حتى تشرب نطافي المباركة، ولكنت قارنت نفسي مع أصدقائي ودعوتهم إلى التعري مستخدمين أسنانهم، وأن يرموا بأنفسهم في البركة الفارغة، وأن يرفعوا الأردية الكهنوتية ويحرروا أعضاءهم المتقطرة المصفوفة باتجاه عطش باطن فخذي ليناكا، التي كانت لتفتح،

مدركة أنها مرغوبة من قبل من هم أكثر عفة في الكنيسة، فجواتها لاستقبال سائر الأجسام، التي تستطيع أن تقدم لها ليلة هانئة عندما يكون الجميع قد أنهكوا، لكنت جلست لأغني مع قراصنة أعالي البحار حتى يوشك الليل على أن يكون نهاراً، حينها فقط، لكنت اقتربت من البار ولسألت السيدة: أي حكاية هي تلك التي لديكم هنا تتحدث عن امرأة موصومة بالعار؟ لكن لوتاريو فضّل تجنب قلة حياء الخطوات الوسطية، لذلك نظر إلى الكأس الممدودة نحوه ورفض بإيماءة من رأسه سامحاً بخروج تنهيدة جاءت أقرب إلى القول: «شكراً، اليوم لا».

عندما دخلنا إلى العلية، وجدنا نيكنا ترتب الحبال وتبدل الضمادات المدماة. أريد رؤية الجروح، قال لوتاريو ناظراً إلى رفاقه كما لو أنه كان يبحث عن دعم في ذلك الجمع الغامض وفي تلك العيون العصبية بسبب القرب العاري من الجسد الفتي الأخير في البلاد. نيكنا حلت ضماد اليد اليمنى وجميعنا تمكنا من رؤية أن الشق الرفيع أصبح محاطاً، في تلك اللحظة، بزوائد لحمية دقيقة.

لوتاريو تجنب الجاذبية التي أثارتها الطفلة شاغلاً نفسه برفع الضمادات الأخرى، متبيناً ذلك السلوك الذي يعتمده القديسون المرسومون على جدران الكنيسة، تلك النظرة التي لا ترى، تلك الأيادي التي تمتد كما لو أنها تبحث عن مداعبة، لكنها لا تلمسها قط. ومن ثم اقترب من جسم الطفلة وكان عليه أن يجهد نفسه لكي لا يفقد الدعة والسكينة بفعل القرب من الثديين الأبيضين المتوّجين بحلمتين لونهما بالكاد يبدو أكثر قتامة بقليل، توجه على الفور إلى مشطي القدمين وأوجاع اليدين باحثاً في دواخل كل الموصومين بالعار عندما يفترض أن يكون فيهم: فتحة للدخول وأخرى للخروج. وعندما لم يجد شيئاً وهو

يحاول تفادي سحر البشرة العذرية، ركز نظرته على جرح اليد اليسرى وعلى النعومة اللحمية التي تحيط به، حالة شفتين أخذتا شكل الفم قالتا له: «المسني»، فعل ذلك بأنملة السبابة مدركاً أن إصبعه تخلى عن كونه قديساً وأنه أصبح أداة للمداعبة. جسم الطفلة ارتعش، فتحت عينيها بعنف وأظهرت بياضهما للوتاريو، مجبرته على التوقف. ثم عادت الطفلة لتغلق عينيها من جديد بينما اقترب لوتاريو مني كجرو شهيد، مرتعباً من الإغواء. يتعين علينا مراجعته، كان الشيء الوحيد الذي قاله بينما قاد رفاقه باتجاه المخرج. تابعناهم بأعيننا وكاليكستو بقي يغطي الجروح بكل ما لديه من حرص على أن تكون يداه المرتعشتان قادرتين، فعلاً، على القيام بذلك.

بعد مرور يومين، طرقوا باب البيت في وقت مبكر. لوتاريو جاء، هذه المرة، برفقة كاهن عجوز واحد فقط له صلعة لامعة ولحية رمادية والذي نظر، بوقار، إلى وجه كاليكستو المستيقظ للتو. أين سيدة البيت؟ سأل الكاهن العجوز، فقاده كاليكستو إلى العلية، إلى المكان الذي لم أتحرك منه على أمل أن يتحول صمت الطفلة إلى صوت يوضح لي أي عزيمة أجبرتني على ترك الصالون الرئيسي بمنتصف الليل لكي أذهب للجلوس معها على السرير. الطفلة فتحت عينيها حين أحست بهم وهم يدخلون العلية ونظرتها البيضاء اخترقت السراديب التي وشت بالأعضاء المرفوعة إلى السماء، فهبطت الأناجيل لدفن التجاعيد تحت كلمة الله، ولم يبق سوى صمت سميك لبخار لبني بعينين بيضاوين نفذتا من ثوبي القسيسين إلى السقف لتضيع هناك في الصدوع التي خلفتها الرطوبة عقب الأمطار البيضاء، صمت أحاط بقدمي الكاهن العجوز وجعله يسير باتجاه الطفلة، والركوع عند حافة السرير ليضيع في بياض البشرة وليترك يديه تطفوان متوترتين على كل سنتيمتر من الجسد.

لوتاريو لم يبق خالياً من السحر الأبيض، وببطء ساذج سعيد يسير نحو سقالة الإعدام، اقترب من قدمي الطفلة لاكتشاف الجروح. الكاهن العجوز فعل ما هو طبيعي بيديه، وكل واحد منهما تخلى، كأنه يتفادى الدم، عن ملاحظة أعماق الطفلة.

مرت ساعات طويلة هناك حتى أصبح النهار مساء والمساء ليل وحتى استيقظت طفلاتي ونزلن إلى الصالون الرئيسي، وحتى فتح كاليكستو أبواب البيت والزبائن جلسوا وراحوا يطلبون الزجاجات والمداعبات، وحتى عادت طفلاتي إلى النوم وإلى الاستيقاظ، وحتى مضى اليوم التالي بطوله وكاليكستو جاء بطناجر ينبعث منها البخار وسأل ما إذا كنت بخير، وإذا ما كنت أرغب بطرد الكهنة من البيت.

في الليلة الثالثة، ابتعدوا عن السرير وسمعت الكاهن العجوز يقول: هذه الطفلة لم تعد تنزف دماً، بينما كان لوتاريو ينظر إليه بحيرة وارتباك، كما لو أنه كان يحاول تبرير ما اعتبره نقيصته. الكاهن العجوز، ابتسم له، وقال: لنعد إلى الدير في الوقت الذي كان يلمس ذراع الطفلة. مع تلك الكلمات بدت كأنها تستيقظ من سباتها وفصلت بالكاد شفتاها عن بعضهما بعضاً كما لو أنها تريد استهلال الكلام.

الكاهن العجوز قرب أذنه إلى فم الطفلة، وقال: أسمعك، بنيتي، مستغلاً تلك الوضعية كي يرى عن قرب ذلك الجسم الذي بدأ يستيقظ، تلك المسام التي ارتفت الواحد تلو الآخر جراء قشعريرة بطيئة من تلك الحلمتين اللتين أظهرتا كبرياء نهدين تامين، ذلك البطن الذي اشتد بنعومة، واسترخى محولاً الشدة إلى أنّة طويلة لعوب ومستفزة استقرت في مسمع الكاهن، وارتحلت عبر الرداء الكهنوتي مداعبة قضيبه، توتر في اليدين وشراهة في اللسان حولتا الكاهن بكل جوارحه

إلى دمية دنت من جديد، وأخذ يد الطفلة مداعباً بإبهاميه الزوائد اللحمية التي أحاطت بالجرح، ورويداً رويداً راح الجرح يتفتح ومن داخله بدأت تخرج قطرة مرمرية لامعة، قطرة كان من الممكن جداً أن تكون لؤلؤة أو دمعة لبنية، قطرة التقطها الكاهن بلسانه وتذوقها بقنوط، كما لو أنه بفعل ذلك تذهب الحياة، أو بالأحرى، كما لو أنه بفعل ذلك ستعود له الحياة؛ لأن شعره الشائب بدأ يتحول إلى اللون الرمادي وصلعته غطاها الزغب الناعم.

لوتاريو، الذي ما كان قد فهم بعد ما يشاهده، أحس برائحة حلوة وعنيفة تتسلل إلى أنفه، حلوة لأنها داعبت فكره، وعنيفة لأنها انغرزت في قضيبه، وأجبرته على أخذ اليد الأخرى للطفلة للعقها بفجور. أما أنا، فقذفت نفسي لكبح جماح ذلك الزوجين من الخفافيش الماصة، لكن ما إن لامستهما حتى أمطرتاني بزخة من الضربات التي هشمتني إثر ارتطامي بالباب، محدثة دوياً، لحسن حظي، حضر كاليكستو؟ ما الذي يحدث سيدتي؟ سأل حين دخل إلى العلية ووجد الكاهنين الاثنين يمصان ويعود لهما شبابهما مع كل قطرة احتلباها بلسانيهما.

أخرجهما، صرخت به، لكنه ما كان ينظر إلي بعد، لقد كان عالقاً بالعطر الذي كان يخرج من الطفلة وسار بيدين متأهبتين لتحرير قدميها. كاليكستو، صرخت دون الحصول على جواب. كاليكستو، قلت وأنا أنهض نفسي للنزول والبحث عن مساعدة من طفلاتي. جميعهن كن يرقصن في الصالون الرئيسي وأحطن بي عندما لاحظن هياجي، بينما سألتني أريان: ما الذي يجري؟ أجبتها: أصبحوا مجانين فوق. وصرحت ليانكا: لوتاريو، وصعدت راكضة بينما تابعنها طفلاتي وأنا تابعتهن بدوري. والزبائن شيعوني طالبين إيضاحات حول تلك المغادرة

الجماعية، إيضاحات لم أقدمها؛ لأني ركضت صاعدة درجات السلم هاربة من مسيرة البحارة العجائز الهرمين تلك.

عندما فتحت ليانكا الباب، هاجمنا شذاً قويٌ جداً بحيث تحولت غيرتهن إلى رغبات في معانقة ركبتي لوتاريو ومص رغبته، إلى لوعات لشبك وجه كاليكستو بين سيقانهن وجعله يرتشف المتعة، إلى أياد نهمة ومتعطشة للإمساك بقضيب ذلك الكاهن الذي كان هرماً، إلى حب لجسم الطفلة ذاك، الذي انفتح على العالم.

الزبائن الذين تبعوني أحبوا ذلك العطر أيضاً وتحلقوا حولنا كموجة في ليلة عاصفة، محولنا ذلك الشذا الأخاذ جميعاً إلى جسم لا شكل له راح يسعى مجنناً وراء تلك الجروح الرطبة كثيرة العصارة، فأصبح كل شيء عبارة عن حركة ذهاب وإياب دؤوبة لأياد وألسن عطشى، لأظافر وأسنان مفترسة اهتزت في صراع مرير لا ينضب في سبيل الجرح الموعود، لأجسام تدافعت الواحد تلو الآخر تجاه الجدران، كل شيء أصبح ضجيجاً قوامه العواء واللهاث في محاولة للإمساك بالهواء، بذاك العطر الذي راح يهبط عبر درجات السلم ويخرج عبر باب البيت ونوافذه، معلناً للأمة أنه مع جروح الطفلة بعثت الحياة وولدت من جديد. في مجموعات، وبخطوات بطيئة انتصرت على السنوات، راحت تصل تلك الأطياف والأشباح التي تحول إليها سكان الميناء، سكان البلاد، دخلوا إلى البيت بعيونهم المغمضة؛ لأن الشذا الأبيض كان كافياً لمعرفة إلى أين تتجه الخطوات.

لا أعرف كم مرة رأيت جسمها يعبر فوق رأسي مرفوعاً بدوامة الألسن المستعيدة لشبابها، لا أعلم كم مرة بلغت جروحها الرطبة فمي، لا أذكر كم مرة تمكنت من الإحساس بتشنجات لذتها التي اختلطت

بعصارتي، عصارتها وهي تغسل وجهي الذاوي لتحوله إلى لمسة تويجيّة، لا أعرف سوى أنه، في لحظة ما، كنت محاطة بفوج من الأطفال بكدمات وردية ما عرفوا أين التقوا وساروا جميعاً باتجاه المخرج، وأن الملابس الرثة أصبحت كبيرة علينا، وأن جسمي عاد ليكون جسم الطفلة التي علمتها نولفا كيف تلتهم الرجال. في البركة، تحديداً، في وسط الصالون الرئيسي، وجدتها تقطر من جروحها قطرة قطرة آخر قطرات الحياة، كانت وحيدة دون أي لسان يضايقها. ماتت بلهاث طويل وابتسامة منسابة من بين شفتيها. حينئذ صعدت إلى غرفتي، ما كنت أعلم ماذا أفعل بذلك الجسد الميت، وما كان لدي سبب لمعرفة ذلك، أنا كنت مجرد طفلة سميتها، منذ ذلك اليوم، مادوليا.

ولد إدواردو أوتالورا مارولاندا في بوغوتا (كولومبيا) عام 1981 . عندما أنهى دراساته في الفلسفة، أدرك أن ميله لا يسير باتجاه صرامة البحث ولا صلابة الحجة والبرهان، وهكذا كرس اندفاع الكاتب وزخمه لابداع مشاريع أدبية. وفي صيرورة سعيه إلى تكوين نفسه بهذا المعنى،عاد إلى مقاعد الدراسة وحصل على درجة الماجستير في الكتابات الإبداعية من جامعة كولومبيا الوطنية، التي تخرج منها عام 2010، بينما يوزع وقته، حالياً، بين الكتابة والعمل مدرساً جامعياً .

في «مادوليا»، نقف أمام رواية يقطر منها الأبيض مهما كانت زاوية النظر إليه، لكنه ليس بياضاً حليبياً نقياً، بل كثيفاً يلف الجميع ويدخله في حالة من النشوة عندما يلامسه.

«مادوليا» تروي فصول أزمة تعصف في ميناء يمر في أزمة أصلاً، أزمة تأتي، تحديداً، عن طريق الوفرة المتفجرة بسبب طفلة حديثة الولادة، تلتصق بسبب إفتقارها للأم، بالثدي السخي لبائعة هوى تقرر تغذية الصغيرة. على هذا النحو يمضي كل حدث في هذه القصة، التي يفيض فيها كل شيء: الزمن، الشخصيات،الأبيض وحتى الأحمر، لكن قبل كل شيء، الكلمات.

«مادوليا»، في الوقت عينه، رواية زاخرة بالمحتوى والوفرة .

